رواية

دفاتر مُفَكَّكة الأوراق



دفاتر مفككة الأوراق

رواية

دفاتر مفككة الأوراق

فوزي الهنداوي

اسم الكتاب : دفاتر مفككة الأوراق

تأليف: فوزي الهنداوي



إصدار دار الجواهري

للنشر والتوزيع بغداد - شارع المتنبي

E-mail:daraljwahere@yahoo.com

موبايل: 07702910090

الطبعة الاولى

٢٠١٦

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٢٠٨٣ لسنة ٢٠١٦

إضاءة

" النساء مثل الروايات، لابدّ
أن تجد نهاية لعقدها ... "

ستندال

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لقد طبعت الرواية – بوصفها جنسا مرنا- بالظواهر المجتمعية بشكل لافت خاصة وهي تقدم حسما معرفيا عن مدى التأثيرات الحياتية في ثيمها واشكالها وبنائها، ولعل الرواية العراقية تميزت بطابعها الخاص الذي يتجه بأصرار نحو الاهداف والمشاكل والرؤى الحياتية التي تختص بأطار الحياة العراقية، فضلا عن الكم اللافت من المنتج الروائي العراقي الذي اخذ يطرد بأطراد الظواهر والصراعات والاحداث في ظل الراهن الذي يغلف الحياة اليومية العامة والخاصة.

ومن هذا المنتج طالعتنا نتاجات الكاتب فوزي الهنداوي، وهي نتاجات تتجه في اطارها العام نحو التجارب الشخصية البحتة في ظل التجارب العامة والواقع السياسي المعروف. واخرها رواية (دفاتر مفككة الاوراق) التي تفصح عن الجانب الشخصي الخاص لمجموعة من المثقفات يختارها الكاتب وفقا لمحددات معينة تشكل طابعه الشخصيات وصفاتها وتحركاتها في تجربة تقنية حديثة تعتمد على الخواطر المسجلة في اوراق شخصية، والبريد الالكتروني (الايميل) داخل البناء العام، في منحى يتبنى تقنية (الميتا- سرد)، ومن خلال هذا التوظيف الحرّ والمرونة التي اكسبت شكل الرواية طابعها الخاص ومنهجها المميز على الرغم من خلوها تقريبا من عنصر الوصف، وهو ما يعبر عن اختلاف رؤية الكاتب في تشكيله البنائي ليستكشف مضامين مخبوءة لشخصيات ثلاث

نساء مثقفات، برجوازيات، يقدمهن الكاتب بموازاة الصراع العام ليواجهن العالم بأدواتهن الخاصة التي تعتمد على الكتابة في الاغلب، للوقوف بوجه الاشكاليات المتعلقة بالعلاقات الخاصة ونظرة المجتمع، فضلا عن اسقاطات الواقع الرهيبة التي يرزح تحت وطأتها الفرد.

لم يذهب فوزي الهنداوي بعيدا حين اختار هذه النماذج التي ابرز مكنوناتها الفلسفية في حوارات داخلية وخواطر وتداعيات اظهرت اتساع دائرة الاحباط والاغتراب الداخلي للمرأة داخل اطار تقني يعتمد على المحطات وتسليط الضوء مع محاولة جعل الشخصيات تتحرك لتتحرر تماما مما يقيدها .

ان هذا العمل يعد تجاوزا للتجربتين السابقتين للكاتب لان الإداء الخاص له قد منح تشكيلا حداثويا لبنائه السردي ووفر مجالا متفردا لمواضع تجاربه ومنتجاته الروائية التي غلفها بحمولات فلسفية أجلت الواقع الفكري الحرّ لشخصياته .

لقد منح هذا النتاج للكاتب فوزي الهنداوي بشكله الجديد المجال إلى الذهاب إلى أهمية تراكم الخبرة في الكتابة السردية لاجل الوصول إلى الشكل المطلوب من الناقد والقارئ والكاتب نفسه، فتجاوز مواطن الضعف في البناء الروائي انما يتطلب اداءً عاليا من الكاتب الذي قدم نوعا من التنظيم في السرد والحبكة حين وظف طريقة جديدة في التعامل مع احداثه التي تطلبت تقنية معينة تمثلت في طرح التساؤلات التي تنطلق من البحث عن الذات والحرية، مستغلا قدرة الجنس الروائي البالغة على

الانفتاح النظري والتقني على جملة من الاجناس الابداعية الاخرى تجعله ذا طابع حركي مفتوح وقابل للاجتراحات الفنية المستمرة مع كل تجربة جديدة.

وهنا لا يسعنا الا ان نقدم هذا العمل للقارئ لنفتح امامه دفاتر المثقفات ليسبر اغوارها ويغوص في اعماق شخصياتها مع الامنيات للكاتب بنجاح اوفر.

د. كرنفال أيوب

أستاذ النقد الحديث المساعد

كلية الآداب ــ جامعة بغداد

استهلال

مادامت الكتابة فن التورط، فلأجرّب التورط معهن.

ستكون مغامرة لذيذة وممتعة ؛ كاتب يقتحم حيوات ثلاث نساء مثقفات مرة واحدة، برغبتهن، ليكتشف أسرارهن المخبوءة في دفاتر ظلت حبيسة الكتمان.

سأراوغهن، سأقفز على الواقع لأحلم وأرى المستقبل وأصفه، سأبثّ الأمل في نفوسهن العطشى للحب. فليس هناك عمر للحب، يأتي بغتة من زقزقة العصافير، من حلم، من دنو للموت، من الذات نفسها. لا يبحث عن مبرّر لظهوره المفاجئ، هكذا يحدث، دون أن تدري كيف.

حبٌ بهذا البهاء الفاتن، يأتي بكامل معانيه، بسطوع الحدس وإدمان رائحة الوجود، هنا تكمن خطورته، حين يعيشه الإنسان واضعاً حياته قرباناً من دون أن يلتفت للوراء ولو للحظة.

أدرك أني سأصطدم بعقبات، فالكتابة ليست سجادة فارسية يمشي عليها الكاتب، لكني سأكتب ؛ لأن هناك أشياء لابد ان افصح عنها، مسؤوليتي أن أكتب.

أكتب لأن الكتابة ذات قدرة تعبيرية مدهشة، تشفي الأرواح المجروحة، والقلوب المثلومة.

ففي كل كتابة حيّة تكمن قدرة التعاطف مع الآخرين، وتثوير طاقاتهم الخبيئة. وكما ترى إيزابيل الليندي فإن " الكتابة مثل ممارسة الحب، دعك من بلوغ النشوة، واستمتع بالتجربة ذاتها".

حفل توقيع كتاب

-١-

المصادفة هي ما جمعت الصديقتين الأستاذة الجامعية أماني والرسامة احلام بالإعلامية والناشطة البارزة في حقوق المرأة آمال، حصل ذلك اللقاء في حدائق نادي العلوية في أحد أيام ربيع بغداد من عام 2014.

احتشد كل المدعوين لحضور حفل توقيع أول كتاب لآمال في قاعة عشتار، رجال ونساء أغلبهم من النخب الثقافية والإعلامية وناشطي المجتمع المدني مع قلة من رجال السياسة والقضاء حضروا الحفل بناءً على دعوات وجهتها لهم آمال.

رئاسة آمال لتحرير مجلة عيون إنانا الأسبوعية المعنية بشؤون المرأة والأسرة والطفولة ونشاطاتها حقوقية ومحامية مكنتها من أن تكون شخصية معروفة في الأوساط السياسية والإعلامية لذا كان الحضور واسعاً ومميزاً، وتحت عدسات كاميرات العديد من القنوات الفضائية.

لم تكن أماني واحلام من المدعوات لحفل التوقيع، كانتا تزوران معرضاً تشكيلياً في النادي فأثار فضولهما حجم الاهتمام الإعلامي لما يجري في قاعة عشتار، دخلتا القاعة رغبة في الاكتشاف واستمرتا بمتابعة الحفل إلى أن حصلتا على نسختين من الكتاب تحملان إهداء آمال وتوقيعها.

خرجتا بعدها إلى الحديقة الواسعة للنادي لارتشاف القهوة، ظلتا تتصفحان الكتاب، فوجئتا بآمال تبحث عن طاولة فارغة لتستريح عقب

أداء متعب، ظلت تتجول بين الطاولات فنادت عليها أحلام لتكون الضلع الثالث لمثلث مثقفات قادتهن الصدفة لمشروع كتابي جديد سيترك بصمته على حياتهن الشخصية.

– تفضلي ست آمال، يسعدنا جلوسك معنا، أنتِ اليوم نجمة بامتياز.

هكذا ابتدأت أحلام الرسامة الجميلة حديثها مستقبلة آمال بابتسامة.

أما أماني الأكاديمية الحاصلة على شهادة الدكتوراه من جامعة ليون الفرنسية فقد نهضت وصافحت آمال بحرارة قائلة :

– أجمل ما في الحفل كلمتك، كانت رائعة ومؤثرة.

– رغبت آمال بمعرفة رأي جليستيها بحفل توقيع كتابها، أجابتها أماني :

– لن نتكلم إلا بعد أن تشربي قهوة معنا، لكن قبل ذلك كيف استطعتِ جمع كل هذه التجارب والشهادات لنساء كثيرات ؟

– سأوضح لكما كل شيء فيما بعد، دعونا نتعرف على بعضنا أولاً، لنبدأ بهذه الحلوة، مشيرة إلى أحلام.

– أنا أحلام، رسامة، خريجة كلية الفنون الجميلة، أحضّر حالياً لإقامة معرضي الأول، سيكون هنا أو في كاليري حوار، ستكونين أول المدعوات لحفل الافتتاح.

– تشرفت بك يا رسامتنا الأنيقة.

نظرت بعدها إلى أماني دون أن تتكلم.

– أنا الدكتورة أماني، أستاذة جامعية متخصصة بعلم الاجتماع الأدبي، لي محاولات في كتابة الشعر.

– رسامة وشاعرة .. ما شاء الله، معادلة رومانسية متوازنة.

بعد ارتشاف قهوتها استأنفت آمال الحديث :

– أنا سعيدة بمعرفتكما، وسأكون أسعد إذا قبلتما صداقتي.

– تقصدين على الفيس بوك ؟

ردت عليها أماني وهي تبتسم.

– لا طبعاً، على أرض الواقع.

– الواقع مُر ومأساوي ابتعدي عنه.

ضحِكْنَ جميعاً، طلبت آمال ثلاثة أقداح عصير قائلة :

– لنستبدل القهوة بالعصير ليكون مزاجنا رائقاً.

– وما علاقة العصير بالمزاج ؟ سألت أحلام.

ردت آمال وهي تلقي نظرة إعجاب على شَعَر أحلام المنسدل فوق كتفيها:

– مثل علاقة شَعرَك الجميل بالإلهام.

نهضت أماني مرددة :

– الله .. الله .. بدأ الغزل مبكراً، لا .. لا، أنا أحتج، شَعَري أجمل من شَعَر أحلام.

– اجلسي يا دكتورة، لأكون منصفة : فعيناك غابتا نخيل ساعة السحر أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر انتشت أماني وأحلام بإطراء آمال التي أضفت على الجلسة نكهة ممتعة مهدت لحديث أكثر جدية.

نحى الحديث منحى آخر صوب الجوانب الشخصية والحياة الخاصة بكل واحدة منهن. نقطة البداية انطلقت من آمال التي تتقن بحكم تجربتها الإعلامية وعملها محامية كيفية استدراج الآخرين للحديث وجرّهم إلى مناطق تبدو للوهلة الأولى محرّمة تدخل ضمن الخصوصيات الشخصية. وضعت آمال معطيات كتابها متخذة منه سبيلاً لتشجيع أماني وأحلام على البوح قائلة :

- لم أرغب بإسقاط تجربتي الشخصية، حياتي الزوجية، نجاحاتي، اخفاقاتي، خيبات الأمل التي واجهتها على النساء اللواتي حاورتهن، تركتهن يتحدثن على سجيتهن، يُخبْنَ بكل ما يضمرن في قلوبهن، ووثقت شهاداتهن وكتبت عن حياتهن وتجاربهنّ، إن كنتُ غير موفقة بحياتي الشخصية فهذا لا يعني إسقاط تجربتي عليهن، لكل امرأة عالمها الخاص المختلف عن الأخريات.

لم تحتمل أحلام أكثر بعد أن اشتعلت غريزة فضولها :

- ست آمال، نحن اتفقنا أن نكون صديقات، لا داعِ للتلميح، نريد أن نطّلع على تجربتك لنستفد منها، أنتِ أكثر خبرة واختلاطاً بالمجتمع منّا، لماذا لا تكشفي تفاصيل حياتكِ الخاصة ؟ حتى نتشجع ونبوح بكل شيء، لنطرح كل الملفات على طاولة النقاش.

هكذا وقعت أحلام بالفخ الذي نُصِب لها ولصديقتها.

تكلمت آمال بانتقاء محسوب لما تريد إيصاله من رسائل، طرحت نفسها محلّلة نفسية وباحثة اجتماعية تسعى لمداواة جراحات النساء مترفعة عن معاناتها. قاطعتها أماني مستفسرة عن فحوى كتابها وطريقة تأليفه والهدف منه.

استعرضت آمال عناوين الفصول، ثم قالت :

ـ كما ترَوْن عنوان كتابي ـ تجارب نسائية من رحم الواقع ـ مجموعة قصص صحفية كتبت بأسلوب سردي يوثّق معاناة عينة من النساء في بغداد ومدن أخرى، تحدثن فيه عن تجارب بعضها مؤلم والبعض الآخر إيجابي. تجارب متنوعة فيها آلام وآمال، أفراح وأحزان، نجاحات واخفاقات.

أما هدفي من الكتاب فهو أن أضع هذه التجارب أمام انظار جميع النساء ومنظمات المجتمع المدني والجهات الحكومية والمجتمع الدولي، لخلق وعي بمشاكل المرأة وهمومها الشخصية والأسرية والمجتمعية وما تتعرض له من ضغوط اجتماعية واقتصادية وأمنية وأسرية.

فاجأتها أحلام بسؤال بعد أن ألقت نظرة سريعة على عناوين الفصول:

ـ الا ترين أن العينة المختارة لا تمثل خارطة نساء المجتمع ؟

كانت هذه أول ملاحظة نقدية توجه إلى كتاب آمال بعد أن أجمع المتحدثون خلال حفل التوقيع على الاطراء والثناء، استفزّها سؤال أحلام فردّت بآخر:

- كيف ؟ ماذا تقصدين بالضبط ؟

- أقصد أن العينة لا تتضمن نساء مثقفات، هل تعتقدين أن تجاربهنّ في العمل والحياة عموماً لا تستحق الدراسة أم لا همومَ لديهن ؟

انتبهت أماني لملاحظة أحلام وساندتها بالقول :

- ذكية صديقتي، صحيح ست آمال، هذه قضية منهجية ندرّسها في الجامعة ينبغي أن تكون العينة ممثلة لمجتمع البحث تمثيلاً صادقاً وشاملاً.

وجدت آمال نفسها في وضع لا يمكن الدفاع عنه :

- أعترف بدقة كلامكما، هذا نقص لابد أن أكمله، لكن كيف ؟

- وجدتها ! وجدتها.

صاحت أماني وهي تضرب بكفها على الطاولة.

- كيف ؟ ردت آمال عليها

- ليس الآن، بعد الغداء.

- ٣ -

تحول الغداء إلى جلسة عمل، كشفت أماني عن تفاصيل اقتراحها :

- أقترح عليكما أن نخوض مغامرة كتابية، نوثّق تجاربنا الشخصية ورؤانا وتصوراتنا بكل صدق وموضوعية، سواءً بأسمائنا الحقيقية، أو نستتر خلف أسماء مستعارة، نجمع ما نكتب في كتاب من ثلاثة فصول، كل واحدة منا تختص بفصل، كتابنا هذا يكون بمثابة الجزء الثاني من كتاب صديقتنا الجديدة النجمة الإعلامية المتألقة آمال .. تصفيق.

صفقت أحلام وآمال، عقبت أحلام :

- فكرة عظيمة من الرائعة أماني، سيغزو المكتبات ومعارض الكتب وشارع المتنبي، أنا مستعدة لترجمته إلى الإنكليزية وسأطلب من والدي التدخل لنشر النسخة الإنكليزية في لندن حين يسافر إليها لقضاء عطلته الصيفية.

أما آمال فقد رأت في الاقتراح امتداداً لمشروعها الشخصي الذي يهدف إلى التصدي للهيمنة الذكورية القائمة على ترسيخ دونية المرأة، وتهميش دورها الفكري والثقافي، إلا أنها اعترضت على فكرة الأسماء المستعارة :

– لماذا نتقنع خلف أسماء مستعارة يا دكتورة أماني ؟ أليس المثقف هو من يتمتع بالشجاعة والجرأة الفكرية الكافية لطرح الأسئلة المهمة عن المشاكل الحقيقية التي يعانيها مجتمعه، والتعرف على الاختناقات

المزمنة التي تشل الفكر وتغيّب العقل وتسبب العقم وتطرد العقول المفكرة خارج حلبة الأوطان ؟

ايدت أماني كلامها واشترطت أن تكون الكتابة بكامل الحرية :

- نكتب بوصفنا مثقفات، نطرح تجاربنا وطرق تعاملنا مع الذات والمجتمع بدءً من الأسرة والأقارب والزملاء والأصدقاء، ومواقف هؤلاء حيال سلوكياتنا ونمط حياتنا وخياراتنا، نعرض أفكارنا بوضوح وبأسلوب يفهمه المتلقي بعيداً عن التنظير والغموض.

قاطعتها أحلام :

- وبغض النظر عن مقبولية النسق الاجتماعي ومدى تقبله ما نكتب.

ابتسمت آمال وقالت :

- قصدك نتمرد على البيئة الاجتماعية ونعلن البيان الأول لثورة المثقفات.

تساءلت أماني :

- نسينا عنوان الكتاب ؟

أجابتها آمال :

- دفاتر مثقفات، ما رأيكما ؟ أرى انه عنوان جاذب للمتلقي، سيجذبه لاكتشاف أسرار هذه الدفاتر.

وافقتها أحلام وكذلك أماني الرأي مقترحة أن تكتب كل واحدة تجاربها في دفتر ثمّ تسلم هذه الدفاتر إلى كاتب محترف يمتلك لغة رصينة وأسلوب شيق، يتولى مهمة التحرير وإعادة الصياغة والتنقيح.

تغيرت ملامح آمال واعترضت :

- أرجوكما نقطة نظام، لا أوافق أن يقوم رجل بإعادة الصياغة والتحرير، رجل لا، هذا استسلام للرجال وتكريس للهيمنة الذكورية حتى على كتابات المرأة وآراءها، نختار امرأة مثقفة لتقوم بهذه المهمة.

انضمّت إليها أحلام وزادت بالقول :

- كلام ست آمال دقيق، لماذا نتعكز على الرجال دائماً ؟ مَنْ يكونوا ؟ وماذا يروّن أنفسهم ؟ لا دكتورة أماني أنتِ صديقتي الوحيدة وتعرفين سمو منزلتك عندي، آسفة إن اختلفتُ مع رأيك، كيف نطالب باستقلالية المرأة وندعوها للتمرد والثورة على قيم اجتماعية متخلفة من صنع الرجال ونسلّم نتاجاتنا بيد رجل، من المؤكد أنه سيتلاعب بالألفاظ والتعابير ويفرغ ما نكتب من محتواه بأساليب شيطانية.

لم تشأ أماني توسيع حدة الخلاف خاصة بعد تأييد أحلام راي آمال بقوة، هذه أول مرة تبتعد أحلام عن آراء أماني.

صمتت برهة ثم اقترحت تأجيل اختيار المحرّر إلى وقت لاحق بعد أن تكتب الدفاتر.

تواصلت اللقاءات بينهن، وتعمقت علاقتهن، جلسات مشتركة جمعتهن في نادي العلوية وكافتيريا الجامعة حيث تدرس أماني، وقاعة أنق للفنون التشكيلية في الوزيرية القريبة من منزل أحلام، ومطعم أغصان الزيتون في السيدية الذي لا يبعد كثيراً عن شقة آمال.

طغت الاهتمامات النسوية وإنجاز دفاترهن على أحاديثهن. انهارت الحواجز النفسية تدريجياً، وباحت كل واحدة بأسرار وحكايات وتجارب عاطفية، طرحت جميع الملفات على طاولة النقاش.

لعب معرض أحلام دوراً في توثيق علاقتهن، تولت آمال مسؤولية التغطية الإعلامية بحكم علاقتها الواسعة مع القنوات الفضائية ووسائل الإعلام الأخرى فيما أخذت أماني على عاتقها الجوانب اللوجستية.

في ختام المعرض أصرّت أحلام على دعوة آمال وأماني إلى بيتها، قالت أن والدها يريد الاحتفال معهن بنجاح المعرض، وقد جهّز وجبة غداء تليق بصديقتيها.

انتهزت آمال وأماني هذه الفرصة لمفاجأة أحلام بهدية، سلسلة ذهبية تنتهي بميدالية كتب عليها : نحبك أحلام.

بحضور والد أحلام وعلى مائدة الغداء أثارت أماني مسألة اختيار من يحرر الكتاب ويعيد صياغته، قالت :

- يا جماعة كتاباتنا اكتملت تقريباً، إلى الآن لم نتفق على مَنْ يعيد الصياغة، لديّ اقتراح وأريد من العم أبو أحلام أن يشاركنا النقاش فيه

أعرف زميلاً معي في الجامعة، كاتب محترف، يتمتع بثقافة عميقة، وأسلوب جميل، ولغة سليمة، والأهم من ذلك أثق به، سبق وأن تعاملت معه، نطلب منه إنجاز هذه المهمة شرط أن يكون عمله تحت رقابتنا، نحدد له خطوطاً حمر لا يتعداها، ما رأيكم ؟ أرجوكم لا تعقّدوا القضية فقد تأخر كتابنا.

بادر والد أحلام للحديث قبلهن :

– مادام دكتورة أماني طلبت مني إبداء الرأي، أقول : أنا مع اقتراحها، فهي تعرف الرجل بحكم الزمالة، وهو يجمع بين الصفتين الأكاديمية والإبداعية، هذه سمة جيدة، أقترح أن تلتقوا به لقاءات عدّة، توضحن له ما تردن بالضبط، وتتركن له هامشاً صغيراً للتصرف.

ردت أحلام :

– طبعاً بابا توافق، الرجال متضامنون ضدّنا، نحن ضحاياكم.

– لا أبداً، أنتِ تعرفين والدك، ربّيتك على قيم الحرية والاختيار الحر.

– أكيد بابا، أمزح، أنتَ مثلي الأعلى، افتخر بك، للتأكد اسأل أماني.

ابتسمت أماني وربتت على كتف أحلام :

– بنت أبيها.

تدخلت آمال لحسم الموقف واتخاذ القرار النهائي :

– أوكي، لنلتقيه ونناقشه، وإذا راق لنا لا مانع.

سُعِدت أماني بما آل إليه النقاش :

- شكراً لكم جميعاً، سأدعوه للقاء يجمعنا معاً، لكن أرى أنه ليس من اللائق أن نملي عليه خطة عمله، هو كاتب محترف يتقن أساليب الكتابة، أنا متأكدة من مواهبه وقدراته، ثم أن الكتاب بعد نشره سيكون ملكاً للناس، هم الحكم، كل قارئ يفهمه ويؤوله حسب مستوى التلقي لديه، ومرجعياته والثقافية، وخلفيته الاجتماعية، وخزينه المعرفي، ألم تسمعا بنظرية موت المؤلف؟ دور المؤلف ينتهي بعد نشر الكتاب ليبدأ دور القارئ.

صفقت أحلام :

- محاضرة رائعة في التلقي والتأويل لأجمل دكتورة، كم تبدين رائعة وأنتِ تتقمصين دور الأستاذة الجامعية وهي تحاضر على طلابها المساكين، من الواضح أنكِ تصرين على عدم جرح مشاعر الأخ المحرر.

- أبداً، هذا تأويلكِ أنتِ. ردت أماني

- لكن طريقتك في الكلام، وحماستك في الدفاع عنه توحي بأشياء كثيرة، على اي حال أنا موافقة على كل ما ترينه، أقصد على كل ما سيعمله الأخ المحرر.

أنهت آمال – كعادتها- النقاش :

- أوكي، هذا قراري أيضاً، نسلمه المسودات ونترك له حرية التصرف شرط عدم الإخلال بجوهر المضامين.

نريدك ان تقرأنا نهارا

-١-

" المرأة هي العمل الوحيد غير الكامل حيث ترك الله إتمامه للرجل"، وانتَ من سيتمم عملنا هذا يا زميلي العزيز.

قالتها أماني وهي تضع على مكتبي ثلاثة دفاتر صغيرة.

– ما هذه الدفاتر دكتورة ؟

– هذه دفاترنا المفككة، أنتَ من سيعيد ربطها.

ابتسمتُ وأنا تحت تأثير سحر عينيها.

– كلامكِ يذكّرني بمقولة طريفة قرأتها في إحدى الروايات تقول : إن المرأة كتاب مفكك الأوراق، غلافه خير منه، فلا عجب إذا فضّل الرجل قراءته ليلاً.

أطلقت ضحكة قوية قبل أن تردّ :

– نريدكَ أن تقرأنا نهاراً.

– ما قصة الدفاتر؟

– هل أتكلم وأنا واقفة ؟

– آسفٌ، استريحي دكتورة، المكتب مكتبك.

جلست على كرسي قبالة مكتبي، نهضتُ من مكاني وجلستُ على كرسي آخر إلى جوارها، بدأت حديثها :

– نحن ثلاث صديقات، أنا الماثلة أمامك وصديقتي الرسامة أحلام وثالثتنا الإعلامية والناشطة الحقوقية آمال، قررنا تأليف كتاب يجمع

تجاربنا الحياتية ورؤانا ووجهات نظرنا إزاء قضايا اجتماعية عدة، وها قد انتهينا من مسوداته.

قاطعتها :

– أتمنى لكنّ التوفيق، لكن ما علاقتي بالموضوع ؟ شنو آني عم ولد، خال بنت !

عادت للضحك مجدداً :

– يعجبني بك إضافة إلى تواضعك وأسلوبك الجميل، سرعة بديهيتك وقدرتك على توظيف عبارات شعبوية ساخرة في أحاديث جدية، ولهذا رشحتك.

– إلى جائزة نوبل ؟

– لا، إلى تحرير كتابنا وتنقيحه، لندخل في التفاصيل.

– لكن الشيطان يكمن في التفاصيل.

– لا تقاطعني، ألم تقُل لي يوماً، أن المتكلم الجيد مستمع جيد، آه، حتى الفكرة طارت من دماغي، تذكرت، أستاذي، أنا رشحتك لتحرر كتابنا وتراجعه، ستعيد صياغته بأسلوبك الرشيق، تصحّح، تضيف، تحذف ما هو زائد وغير ضروري ليخرج كتابنا رصيناً يليق بنا كمثقفات نطرح تجاربنا أمام المتلقي.

– شكراً لثقتك بي، سأقرأ المسودات، وأخبرك إن كنتُ أستطيع القيام بالواجب أم لا.

ـ أم لا ! ماذا تقصد ؟ يعني احتمال تعتذر، لا عفية، أرجوك، ستجعلني في موقف محرج أمام صديقاتي، منحتك كثيراً، أوصلتك إلى السماء، لا تخذلني أرجوك.

لم أكن جاداً بما أقول، رغبتُ بأن أتمنّع قليلاً طمعاً برجاءاتها، سألتها:

ـ هل قلتِ لهن أنه لا يرفض لي طلباً ؟

ـ لا، لم أقل، ماذا تقصد ؟

ـ لا أعرف.

ـ تعرف جيداً، أنتَ لا ترمي حجراً في الظلام.

ـ كل الذي أعرفه أني لا أعرف.

ـ أترك فلسفة أرسطو واعطني وعداً بإنجاز الكتاب في مدة قصيرة.

ـ طلباتك أوامر.

ـ أنتَ ذوق يا صديقي.

كم دغدغت شغاف قلبي عبارتها الأخيرة، فرحت كثيراً بهذا التكليف الجديد، سأستغلهُ للتقرب منها أكثر، لم أكن أحلم من قبل أن تدخل مكتبي وتحدثني كما فعلت اليوم، غاية ما كنتُ أطمح اليه أن ترد التحية إن صادفتها في أروقة الجامعة وممراتها، متحفظة جداً في علاقاتها حتى مع النساء من زميلاتها.

حين شاهدتها للمرة الأولى، خمّنت أنها ضيفة أو موظفة جديدة، سحرتني بجمالها وعينيها الخضراوين وشعرها الغجري.

تكررت مشاهداتي إياها، لم أسأل عنها أحداً، اكتفيت بمراقبتها من نافذة غرفتي المطلة على ممر الخروج، تغادر في ذات التوقيت يومياً، أنزل بسرعة وأمشي وراءها، لا أدعها تراني، لا أرغب بإثارة انتباهها.

ممتعة تلك الدقائق وأنا أمتّع نظري بجمالها الآسر، بحكم طبيعة وظيفتي تعرفت على الكثير من التدريسيين والتدريسيات وساعدتهم في العديد من المواقف، يومياً يدخل مكتبي العديد منهم لمتابعة إنجاز اعمالهم المتعلقة بالنشر، إلاّ هي.

مع كل مراجع يدخل غرفتي أردد :

ليش التريده الروح

شوفته بعيده

يتخاطف وي العين

يل ما تريده

منتصف الفصل الدراسي الثاني، ابتسم الحظ لي على غير عادته، جمعتني معها لجنة ثقافية تعنى برعاية مواهب الطلبة، في أول اجتماع للجنة، حرصت على انتقاء عباراتي بحذر، أردتُ أن أقدم لها صورة جميلة عني.

المفاجأة غير المتوقعة التي صدمتني، أنها تعرف اسمي وطبيعة عملي، خاطبتني باسمي أكثر من مرّة، يا الله ! يا لهذا الصباح السعيد، لا يهمني إن كنتُ مجهولاً لدى الجميع مادامت كاترين دينوف الشرق

تعرفني وتجلس معي في غرفة واحدة، كاترين دينوف الشرق، هكذا اسميتها.

لم تتكلم كثيراً خلال الاجتماع، ولم تكن متحمسة لعملها في اللجنة، هذا غير مهم بعد أن تعارفنا بطريقة رسمية لا تنطوي على إحراج لي او لها. ساعمل المستحيل لتعزيز العلاقة معها، ساخترع أساليب وذرائع تبدو مشروعة للتقرب منها دون أن تفضح غرامي بها.

-٢-

شكّل مشروع الكتاب جسراً للتواصل مع أماني وغطاء لتبادل الآراء، أحاديث مقتضبة في لقاءات قصيرة. أنا من يثير موضوعات النقاش دائماً، اما هي فتكتفي بتعليقات موجزة.

لم أنجح في كسر تحفظها، ظلت حذرة متوجسة، لم تقل ذلك، كان واضحاً في طريقة كلامها، خمنتُ أنها تخشى البيئة غير الآمنة المحيطة بنا. قالت لي بصراحة أنها لا تسعى إلى نجومية أو شهرة، تفضل البقاء بعيدة عن الأضواء.

حذرها وتحفظها وعزلتها مثلت لي تحدياً كبيراً، قبل كل شيء ينبغي أن أجعلها تثق بي وتطمأن لتصرفاتي وسلوكي معها، كيف ذلك ؟ هذه مشكلتي يجب أن أجد السبيل المناسب.

أخفقت كل محاولاتي لتشجيعها على كتابة مقالات أو دراسات في حقل تخصصها تنتشر في وسائل الإعلام، قلت لها :

- ستصبحين نجمة إعلامية.

ردت ببرود :

- من قال أني أريد أن أصبح نجمة ؟

لم أيأس، ولم أستسلم بعد أن أدمنتُ حبّها، حب صامت أكتمه خوفاً عليه، حين تقف أمامي أو تجلس في مكتبي لا أسمع ما تقول، فدقات قلبي اعلى من صوتها، لا يعنيني ماذا تقول، وكيف ترد على أسئلتي؟ أستغرق

في تأملات، أكون في دنيا أخرى، أتخيّـل أني أحلّق معها في فضـاءات لا حدود لها.

ناقشتها ذات مرة في موضوع يدخل في صلب تخصصها الأكـاديمي؛ طرحتْ أفكـاراً رائعـة برؤيـة حداثويـة، اقترحتُ عليها إعـادة كتابـة هذه الأفكار في مقال وعدتها بنشره في مجلة الجامعة، لم تُعِر اقتراحي أهمية.

لـم تفتُـر همتـي، قلبـي الشـغوف بهـا حفـظ كـل مـا قالتـه، ليلاً دونـت أفكارها في مقال قصير، طبعته في حاسوبي، نسخته على ورق، وضـعت له عنواناً وذيلته باسمها.

في الصباح، تجرأت وسلمتها المقال قائلاً :

- هذه بضاعتكِ رُدّت إليكِ.

- ماذا تقصد ؟

- أفكاركِ أعدتُ كتابتها في هذا المقـال، إقرأيـه، إذا عجبك، سأنشره فـي أول عدد من مجلة الجامعة.

ابتسمت، وعدتني بقراءته وبيان رأيها فيه بعد انتهاء محاضرتها. بعد ساعتين جاءتني فَرِحة:

- مقـال جميـل، لكـن كيـف استطعتَ حفـظ أفكـاري ومـا قلتـه، لـم تـدونها بوقتها ؟

- حفظتها. في ذاكرة اللاوعي.

ضحكت من أعماقها، كم وددت أن أقول لها : أن الوعي واللاوعي، القلب وشرايينه، العقل وخلاياه، اللسان ولهجه، كل جوارحي مبرمجة لك يا كاترين دينوف.

حين صدرت المجلة كانت النسخة الأولى لها، ذهبتُ إلى قاعة محاضراتها، لم أصبر لحين انتهاء المحاضرة، سلمتها المجلة :

– تفضلي هذه المجلة مزيّـنة بمقالك الرائع.

– معقولة ! بهذه السرعة، لم أعرف أنكم تعملون بنظام كن فيكن.

لم أرد عليها، اكتفيت بنشوتي وسعادتي.

انفتحت الطرق المغلقة، وتلاشى التمنّع، وبدأ التحفظ والحذر بالانهيار تدريجياً.

في اليوم التالي جاءت تشكرني :

– لولا تشجيعك ما كان لي أن أكتب.

– أبداً، هذه أفكارك أنتِ، فقط قمتُ بتدوينها.

– أختي وصديقتي أعجبتا كثيراً بالمقال وطلبتا نسختين من المجلة.

– ستكتشفين بمرور الوقت متعة الكتابة.

بدأت مسيرة الألف ميل، ومعها بدأ أملي يكبر، وتعلقي بها يطغى، تواصل نشرها للمقالات بتشجيع ومتابعة دؤوبة مني، اقترحتُ عليها النشر في أكبر صحيفة في البلد ذات الطبعة الدولية، استقبلت الاقتراح بارتياح، وظفتُ علاقاتي من أجل ضمان نشر مقالاتها، وفقت في ذلك،

أصبحت تتابع مقالاتها المنشورة في الموقع الإلكتروني للصحيفة، جلبتُ لها أول مكافأة من الصحيفة.

لم تعد بحاجة إلى تشجيعي، صارت تكتب المقال وتأتي به على قرص CD مع نسخة ورقية، تطلب مني مراجعته وإبداء رأيي به.

رغم توقي لإلغاء الحواجز والرسميات، حرصت على ترك مسافة بيننا خشية رد فعل سلبي منها يهدم كل ما بنيته.

أضطر أمامها للاختصار في الكلام لإيصال كل ما عندي بأقل ما تتيحه لي من وقت، رفعت شعار: البلاغة هي الإيجاز.

- ٣ -

صبر، حذر، لقاءات عابرة، إطراء ومتابعة لما تنشر، تلك فقط حدود العلاقة معها، لم أتجرأ على طرح أي موضوع خارج حدود هذه الدائرة. ظننت أن كلمتها بمسألة تخصها كأنثى، سوف تستفزّ وتنهي تلك العلاقة البسيطة المقنّعة بالثقافة والكتابة والنشر التي أقمتها معها بشق الأنفس. لم أمتلك الجرأة حتى على طلب رقم هاتفها، أكيد أنها سترد :

- ما حاجتك له ؟ ها نحن نلتقي في الجامعة.

بماذا سأبرر طلبي، هل أقول أنا معجب بكِ وأريد أن أتصل إذا اشتقتُ إليكِ ! مستحيل، ستغضب وتطردني من حياتها بلا رجعة، ستقول:

- عرفتك من البداية، أنتم الرجال لا تفعلون شيئاً لوجه الله، تخدعون النساء بأساليبكم السخيفة لتخفون سمومكم إلى اللحظة المناسبة، آسفة انتهى كل شيء.

ظلت هذه العبارات المتخيلة تقضُّ مضجعي، متى تقولها ؟ وحيال أي تصرف طائش مني ؟ لا أستطيع تحديده.

صار حذري أكبر من حذرها، أتخيل فقدانها في أي لحظة، على العكس مما أظن، لاحظتُ أن ثقتها بي تزداد يوماً بعد آخر، واطمئنانها لي في تصاعد وإن كان بطيئاً.

قالت بالحرف الواحد :

- لولا تشجيعك ما كنتُ قد كتبتُ كل هذه المقالات.

- لا أريد منك شيئاً سوى أن نكون أصدقاء.

هكذا أجبتها ويدي على قلبي، خفت أن تفسّر الصداقة على الطريقة الفرنسية، وتؤول مقصدي بغير ما كنت أريده، إلا أنها أجابت بثقة :

- نحن كذلك الآن.

الحمد لله، مرت العاصفة بسلام، اجتزت الزمالة صوب الصداقة، أما الحب فيبقى بعيد المنال.

دفتر آمال

-١-

في حياة كل إنسان، ثمة مناطق مظلمة، نقاط سود، غرائز بهيمية، شهوات بدائية، لا علاقة للوعي والثقافة والمستوى الاجتماعي بها، طباع شرسة غير قابلة للترويض والتدجين.

مراراً، حاولتُ أن أعيد تطبيع شخصيتي وأنسنتها، لكنّي فشلت، كمدمن خمر يحاول الإقلاع عنه فتخذله إرادته في كل مرة، لم أستطع لجم جماح شراستي، كل الظروف كانت ضدّي.

زوج ضعيف الشخصية، منقاد، لا يجيد عمل أي شيء، أنفق عليه من راتبي، لم يجرؤ يوماً أن يقف بوجهي، يبتلع إهاناتي اياه بروح رياضية، هو من كان يدفعني ويشجعني على إهانته وإذلاله بسكوته وخضوعه لي.

بمرور الوقت استمرأت اللعبة، وكانت متنفساً أخفّف من خلاله أعباء الضغوط النفسية التي أتعرض لها.

لم أخطط للارتباط به، ولم أسعَ له، كان يجلس مع شلة أصدقاء في أحد المطاعم، وعلى الطاولة المقابلة كنتُ أجلس مع صديقاتي، لفتته جمالي وجاذبيتي، سحرته عيناي وضحكاتي، أُعجب بشخصيتي القوية، وزعامتي لرفيقاتي، اقترب مني وطلب رقم هاتفي.

بعد أيام طلب اللقاء معي، وافقت، أردتُ أن أعرف ماذا يريد بالضبط، رويداً رويداً توطدت العلاقة بيننا، وتطورت مشاعر الإعجاب، أعجبني هدوءه واتزانه وصدقه.

قال لي أنه معجب بجمالي وجاذبيتي وقوة شخصيتي، ولذلك يريدني زوجة وشريكة لحياته، وافقتُ مثل أيّ امرأة تبحث عن الاستقرار وتكوين أسرة رغم أني لم أغرم به.

لم أصغِ لمعارضة أهلي وتحفظهم على ضعف شخصيته وعدم امتلاكه منزلاً ولا دخلاً ثابتاً، تحديتهم من أجله، اعتقدت إن شخصيته ستقوى بي، سأتعاون معه في تدبير مصروفات المنزل وبناء مستقبلنا.

بعد انتهاء شهر العسل، لم أشعر أني أعيش مع رجل، أنا رجل البيت بامتياز، صحيح أن شخصيتي قوية لكني أنثى، أريد أن أرى ضعفي وأنوثتي في رجولته. كان يطيعني طاعة عمياء، أنا من يقرر دائماً، لم يعترض أبداً على قراراتي، حين أطلب منه اتخاذ قرار في مسألة ما حتى لو كانت صغيرة، يتهرب.

ما عقّد الأمور أكثر أنه فقد وظيفته عقب إفلاس الشركة التي كان يعمل بها وتسريح العاملين فيها فيما كنتُ أعمل وأنفق عليه وعلى البيت.

تفاقم شعوره بالضعف والتقصير، تحملتُ شماتة أهلي لأني تحديتهم بقراري الزواج به، لم يحاول البحث عن وظيفة.

عشت لأشهر متوترة، أعصابي مستفزّة، لم أقصد إهانته أو تحقيره بقدر ما كنتُ أسعى لإيقاظ رجولته، وإشعاره بواجبه إزاء زوجة وبيت.

سلبيته دفعتني لرفع صوتي عليه، لم يمتلك إرادة لإسكاتي، ولو استعمل القوة ضدي لرضيت لأني سأحسّ برجولته وكرامته، إلا أن ذلك لم يحصل.

لم يكن أمامي من سبيل سوى الاستمرار في تأنيبه، أشعر براحة نفسية حين أأنبه، تدريجياً ودون وعي تطورت الحالة إلى إهانته وتعنيفه جسدياً، صرتُ أضربه بما تقع عليه يدي.

مرةً ضربته بمنفضة السكائر وأخرى بروموت التلفزيون وثالثة بملعقة خشب كبيرة على جبهته، بعد أن رأيت دمه يسيل، خفت وهربت إلى غرفة النوم، ظننته سيضربني، إلا أنه جاء يتوسل ويسوق مبررات لتصرفي.

كم كنتُ أحلم برجل يحبني ويعاملني كجارية في بيته لأستمتع بضعفي وأنوثتي، لكن القدر ساقني إلى أن أكون سيدة في قصر مع عبد ذليل بعنوان زوج.

اقصى ما يقوله : أني مسترجلة وأعاني من عقد نفسية وأصلح أن أكون ملاكمة. فقدتُ إحساسي بلذة العلاقة الزوجية معه، تحولت إلى واجب ثقيل لا رغبة لي فيها؛ لأن الجنس ليس الفعل الفيزيائي المحض، إنه العلاقة الحميمية بين المحبين.

أحياناً أتخيّل نفسي أمارس العلاقة الجنسية مع رجل آخر، في كل مرة أختار نجماً سينمائياً أو رجلاً من أصحاب الكاريزما، كم أخجل من نفسي وأحتقرها.

لست من النساء اللواتي يخترن رجلاً ضعيفاً لا يمكن له أن يشكل تداخلاً مع نموهن الانفعالي، تلك طريقة سلبية في البحث عن الحرية الموعودة للمرأة، أرفضها، لكنه الاختيار الخاطئ أدفع ضريبته الباهظة.

أشعر أني أحتاج إلى أن أنفرد بروحي وحيدة تماماً، ينبغي لي أن أمتلك روحي الخاصة على الدوام، وقد تحقق هذا الحلم بعد أن طويت صفحة الزواج، لأبدأ حياتي من جديد، امرأة مستقلة تبحث عن حرية مفقودة.

-٢-

بعد انفصالي تركتُ العمل في المحاماة وتفرغتُ لإدارة المجلة، استطعتُ إدارتها بحزم ونظام دقيق، الكل يتودّدني، بل ويتملقني بحكم سلطتي الرمزية والمادية. لم يشذ عن القاعدة إلا رئيس قسم التحقيقات، الرجل الثلاثيني الأسمر القادم من ضواحي مدينة البصرة.

لم يكن باسل صحفياً، إلا أن ثقافته الأدبية وأسلوب كتابته ولغته السليمة هي ما دفعني إلى تعيينه، أثبت جدارة في أول تحقيق كلفته به عن زواج الفتيات القاصرات والتداعيات الناجمة عنه، قدّم لي مادة صحفية متميزة من حيث طريقة المعالجة والأسلوب واللغة.

خلال إدارته لقسم التحقيقات أنجز ضربات صحفية رائعة أفضت إلى ارتفاع مبيعات المجلة، واستقطبت العديد من المعلنين الذين يبحثون عن وسيلة إعلامية واسعة الانتشار لتسويق بضائعهم، تحسنت موارد المجلة، فقررت زيادة أجور العاملين ومنح باسل مكافأة مجزية.

بعد سنة من عمله، لم يعد باسل كما كان، تغيّر كثيراً، أصيب بالغرور وأخذ يتعالى على زملائه، ويتجاوز صلاحيته، يتغيّب عن اجتماعات هيئة التحرير دون مبرر، لا يحضر حين أطلبه إلا بعد ساعة.

استفزّني اعتداده بنفسه، وشعوره بالأنفة والكبرياء، لم أشأ محاسبته خشية تركه العمل، لاسيما بعد أن ذاع صيته في الوسط الإعلامي وأصبح اسماً معروفاً تتسابق الصحف والمجلات لكسبه عبر تقديم إغراءات مادية كبيرة له.

اعدتُ نبش ذاكرتي لاسترجاع عباراته المقتضبة وتعليقاته أمامي لغرض إخضاعها للتفكيك والتحليل، أردتُ أن اعرف مفتاح الوصول إلى بواطنه، لم أجد غير تحفظه على مقال كتبته أنقدُ فيه الهيمنة الذكورية وتهميش دور المرأة كونها امرأة على وفق نظرة جنسانية مترسخة في اللاوعي المجتمعي، ودعوتُ فيه إلى نسق ثقافي- اجتماعي جديد يعيد للمرأة اعتبارها.

تذكرتُ انه قال : إنك تبالغين كثيراً، وأن النساء إذا منحن سلطة يُسئن التصرف بها. حينها سألته: هل ينبع رأيك من موقف فكري مجرد أم نتيجة تجربة واقعية ملموسة. أجاب بالحرف الواحد : أحتفظ بالجواب لنفسي.

أشعل جوابه النيران في قلبي، ماذا يرى في نفسه هذا القروي؟

كم يحمل من الغرور والصلف والوقاحة ؟! هل وصل به الأمر إلى حد توجيه انتقاد مبطن لي ؟! أراد أن يقول : أنك تسيئين استغلال سلطتك، فقط لأنكِ امرأة، نعم هذا ما كان يضمره، ليته قاله بصراحة.

لم يكتفِ بهذا فقط، كثيراً ما كان يعترض على أفكاري خلال اجتماعات هيئة التحرير، إلا أن إعجابي بشخصيته يزداد كلما أوغل في انتقادي ومعارضتي.

بات يشغل تفكيري حتى خارج أوقات العمل، اكاد ان اقول أنه يؤرقني. دعوته مرات عدة مع الزملاء لحضور مناسبات في نادي

العلوية وأماكن أخرى، يحضر الجميع إلا هو. يبرر غيابه بأن المناسبة لا تتعلق بالعمل، ذات مرة عاتبته :

ـ هذا ليس من الذوق أستاذ باسل.

ردّ بصلافة :

ـ لا أحتاج لمحاضرة عن الذوق منكِ.

لم تفلح أساليب الترغيب والتخويف معه، ظل يتجاهلني، حتى تحية الصباح يردها ببرود وصوت خفيض يكاد لا يسمع، حين يكلمني لا يتعدى كلامه حدود العمل.

أعصابي تكاد أن تنهار من تصرفاته، لم أستطع إبعاد صورته عن مخيلتي، يشاركني كل وقتي.

الغريب انه ودود ومحبوب من العاملين في المجلة، كسب محبتهم بأفكاره ومساعدته لأغلبهم. فكرت بالاستغناء عن خدماته لعلني أنساه، لم يطاوعني قلبي، ثم إن إبعاده قد يهدد مستقبل المجلة بعد كل النجاحات التي حققها.

لم يعد أمامي من خيار سوى الاستعانة بمديرة مكتبي وسكرتيرتي الخاصة إقبال ذات القدرة الكبيرة على الإقناع والتأثير الإيجابي في الآخرين بأسلوبها الدبلوماسي، عسى أن تنجح في ما فشلتُ به. لا أريد منه شيئاً سوى أن يعاملني برفق، ان يبتسم حين يراني، أن يكلمني كإنسانة، كأنثى، كصديقة.

اسلمتُ أمري إليها، شعرت إقبال بحدسها الأنثوي أنني ضعيفة أمام سطوة باسل، لم أصرح لها بذلك، هي استنتجت من نبرة صوتي. كثيراً ما حلمتُ به يضربني، يؤنبني بعبارات قاسية وأنا أتوسله طلباً للعفو والتسامح.

ما هذه الكوابيس يا إلهي ؟ أهي انعكاس لما أشتهيه في عقلي الباطن؟ أم محاكاة لما أتمناه في حقيقتي، أستمتع بأحلامي معه ليلاً، وأتعذب من تجاهله لي نهاراً.

ذات ليلة، حلمتُ به يدخل مكتبي، يتجه نحوي، يمسك كتفي ثم يسحبني نحوه، أتذكر أني وضعتُ راسي على كتفه، طلبتُ منه أن يطوق خصريَ بذراعه، رفض، انسحب، ثم اختفى.

كم وددت أن يكتمل حلمي، أن أضع رأسي المتعب على كتفه، وأبكي، أبكي، أبكي إلى أن يقول لي : أحبك.

رسمتُ خطة تتحرك على وفقها إقبال، أمرتها بالتنفيذ الحرفي، دون زيادة أو نقصان، لأول مرة تناقشني في أمر:

- ست آمال أنا صديقتك وأقرب الناس لكِ، لا أبالغ إن قلت : أنا أحبكِ رغم قسوتكِ أحياناً، نحن نساء نفهم بعضنا، ماذا تريدين منه بالضبط لأعرف كيف أتصرف معه؟

- احسُ كأني احبّه.

- ماذا يعجبكِ بهذا القروي المتغطرس ؟

- رجولته.

عشتُ حالة قلق وترقب وانتظار، استرجعت شريط ذاكرتي قبل أن أتزوج حين كنتُ أقود شلة صديقاتي، أرسم لهن الخطط وأوجّه تحركاتهن، أحدد ماذا يلبسن من أزياء، وكيف يتصرفن في شتّى المواقف، أتدخل لتصحيح مساراتهن وتغيير خياراتهن بحسب رؤيتي.

لا تجرؤ أي منهن على مخالفة توجيهاتي أو الحيود عمّا أحدده من خطوات، امتزج حبهن لي بطاعة أوامري.

لا أعرف سر نزعتي القيادية، ربما تعود إلى تربيتي كوني البنت الكبرى لأبي الذي لم يرزق بولد، فغذى روح القيادة في شخصيتي منذ طفولتي.

في المدرسة كنت أضطلع بدور المراقبة أو القدوة، أنا من يقترح جداول الامتحانات المدرسية ويفرضها على الإدارة، استمر هذا الدور في الجامعة مع تغيير في الأدوار والمسميات، إلا أن الأساس هو هو.

في البيت أتسلم راتب أبي وأحدد ميزانية المصروفات فيما تكتفي أمي وأخواتي بشؤون الطبخ والتنظيف. أنا من يستقبل الضيوف ويجالسهم، لا فرق عندي بين الرجال والنساء منهم.

هل أنا مسترجلة فعلاً كما وصفني طليقي؟ هل حملتُ بذور القيادة في أحشائي فنمت وأثمرت فشلاً بات ينذر بتدمير حياتي ؟

ما جدوى هذه الأسئلة الآن؟ لماذا التذلل والرغبة الدفينة للخضوع لرجل لا تربطني به علاقة سوى إعجابي به ؟

إعجاب على أنقاض تجربة قاسية مع رجل ضعيف قبلتُ بضعفه لإشباع غريزة قيادية مدمّرة، ثم كرهته وطردته من حياتي.

أسئلة أعجز عن إجابتها، إجابات مقنعة تعيدني إلى الصواب.

تمتعت بإجازة قصيرة، رغبتُ بالابتعاد عن أجواء العمل بالمجلة لأترك لإقبال حرية التحرك، في الحقيقة أنا أهرب من لحظة مواجهة مع باسل، قلبي يخفق له، وعقلي يستخف بي.

بعد أن عدتُ للعمل، جاءتني إقبال بوجه تبدو عليه علامات الاستياء، أدركتُ قبل أن تتكلم أن مهمتها قد فشلت.

قالت :

– ست آمال، أنتِ إنسانة راقية، الكل يحترمك ويقدر جهودك، هذا الرجل لا يستحقك ولا يليق بك.

قاطعتها :

– اختصري، ماذا قال ؟

– أبلغته أنني أنا من يقترح العلاقة بينكما، لا أنتِ من تطلبيها، كنتُ أتوقع رفضه، المهم بدأ بالاستخفاف بالنساء والمثقفات منهن بشكل خاص، وصفهن بالمسطحات، الفاشلات عاطفياً، باحثات عن الشهرة الفارغة والنجومية الوهمية، ثم بدأ يضع شروطه لأية علاقة معك.

– ما شروطه ؟

- طلب أن تسندي له منصب نائب رئيس التحرير بصلاحيات واسعة، زيادة راتبه ومخصصاته، مقابل كل ذلك أن تكوني صديقة له فقط، طبعاً هو لم يقل صديقة، ذكر مفردة أخرى لا أستطيع ذكرها أمامك.

- أذكريها لأعرف مستوى تفكيره.

- عشيقة !

- ماذا ؟

- نعم ست آمال، يريدك أن تكوني عشيقته فقط، أنا غضبتُ منه، وقلتُ له باستياء: احترم نفسك، ست آمال إنسانة راقية محترمة تعتز بكرامتها، كيف تصفها بهذه الكلمة عليها.

- أوكي، أغلقي الموضوع، لا أريد أن يعلم أحد بما جرى، إجلبي لي فنجان قهوة، ولا تسمحي لأحد أن يدخل مكتبي.

شعرتُ بجسدي يرتجف، صداع حاد ودوار شديد، وضعتُ راسي على المكتب، لم أعد أرى شيئاً، لا أعرف إن كانت غيبوبة، أفقتُ لأجد إقبال تبلّل وجهي بماء بارد.

ارتشفتُ قهوتي ودخنت ثلاث سكائر متتالية، آن الأوان لاتخاذ قرار يعيد لي كرامتي وينهي لعبة سخيفة ونزوة طائشة.

حانت لحظة المواجهة، مواجهة ذاتي والآخرين، دائماً أدعو النساء إلى التحلي بجرأة اتخاذ القرارات، قرارات تخص حياتهن وتحدد مصائرهن، ها أنا اقف بمنتصف الطريق بين رغباتي وكرامتي، هل أخضع لابتزاز رجل، كل مؤهلاته رجولته ؟

لا أنكر أني معجبة بتلك الرجولة التي أراها معادلاً لضعف شخصية زوجي السابق، لكنها رجولة تجرّدني من كرامتي، يريد أن يبيعني رجولته مقابل كرامتي.

معادلة صعبة، أرفضها، كما رفضت خنوع زوجي وذلّه.

نحن فعلاً غير محظوظات، إن انزوينا في بيوتنا عوملنا كخادمات، مسلوبات الإرادة، خاضعات، تابعات، وإذا امتلكنا الوعي والإرادة والاستقلالية وُصِفنا بالاسترجال ويراد ابتزازنا لندفع إلى دور العشيقات.

لا مسترجلة ولا عشيقة، لا هذه ولا تلك، سأظل كما أنا، أنثى تحتفظ بكرامتها، سأنذر نفسي لمحاربة الظلم والاستعباد والإذلال، أحارب بكل أسلحتي، لن أستسلم لضعفي ولا لابتزاز رجل.

أمليتُ على إقبال مسودة قرار بإنهاء خدمات باسل ومنعه من دخول مبنى المجلة.

دفتر أحلام

-١-

أنا امرأة، كوني امرأة يعني لي أساساً حب الحياة والحفاظ عليها، أريد أن أعيش حياة رحبة خالية من موجات القلق والصراع.

إن الإنجاز، أي إنجاز يكمن في الحب والقدرة على الخلق، لا أدع الإحساس المبهج بالإنجاز العميق يفلت من يديّ.

أشعر أني منجذبة بقوة عجيبة إلى عالم الأحلام، وبالقدر ذاته الذي كنت منقادة فيه إلى القناعة العلمية بأننا لا نستطيع العيش ما لم يتّحد الجزء الواعي فينا مع الجزء اللاواعي، لطالما كنت مندهشة من حجم الخصوبة والثراء الناتجين من هذا الاتحاد الفريد، فإذا انكفأنا على أحد الجزأين منفرداً سنموت، يرتجى من الاتحاد بين الواعي واللاواعي فينا الحصول على حياة رحبة الآفاق، وهذه مسألة بعيدة عن الحاجة إلى الفن. إنها بالنسبة لي حاجة إلى الحياة ذاتها.

أنا أؤمن بالتحرر، التحرر النفسي والعاطفي للبشر، كثيراً ما نقع في فخاخ ننصبها لأنفسنا، ثم نلقي باللوم على الأوضاع والظروف، السبب هو إخفاقنا في الأداء، ينبغي أن نكون مدركين لأنفسنا وأمناء وإياها، عندها سنصبح مؤهلين للتعامل مع ذواتنا.

حين يكتشف المرء أغوار ذاته سيكون قادراً على إقامة العلاقات مع الأخرين. من المؤكد أن بعض عجزنا وإحباطنا يتأتى من ظروف خارجنا، إنما علينا أن نتعامل أولاً مع أنفسنا ثم نتصدى تالياً للعالم الخارجي.

من خلال التحرر والمنجز الإبداعي، أكون قادرة على تقديم نفسي كامرأة حرة.

-٢-

متى نتمرد على اقنعتنا ؟ أقنعة ثـقيلة تلف طريقة تفكيرنا وآلية صنع مواقفنا إزاء قضايا شخصية، هل تخلخل نظام التفكير الجماعي في بواطن عقولنا ليعيد تشكيلها حسب ما يشاء دون مراعاة لخصوصياتنا الفردية ؟

من البيت إلى المدرسة والجامعة ثم إلى المجتمع، سلسلة مترابطة من عمليات التمويه وحجب الحقائق بمختلف الأساليب وصولاً إلى إعادة إنتاج إنسان مسخ مموه مقنّع، لا إرادة له ولا قرار، متناقض الشخصية، في باطنه يؤمن بأشياء لكنه ظاهرياً يتبع الأنساق التي تربى عليها، بل فرضت عليه فرضاً من الخارج.

مع تكرار عمليات التمويه وفرض قيمها الاجتماعية ومنظومتها الأخلاقية، يتحول الإنسان إلى مجرد دمية مقنّعة بقناع مفروض من الخارج يرضي المجتمع الذي يعيش فيه. نظام اجتماعي تربوي أخلاقي ممنهج لتمويه الأفكار لضمان إظهار الاندماج في قيم النسق القائم.

خلاصة كل عمليات التمويه والتزييف تحويل الإنسان – رجلاً كان أم امرأة – إلى دمية مموهة فاقدة الإرادة، وتنمية القدرة على الخداع عبر إقناع الآخرين بصدق الانتماء لنسقهم ومنظومتهم. هكذا أصبحنا مخاتلين دون قصد ما.

- ٣-

أحياناً أشتهي أن أنغمس في علاقات مع متمردي الروح من الذين لا تقيّدهم القيود الثقيلة التي تقيّد روحي، أناس بوسعهم فعل كل ما تشتهيه أرواحهم.

بفعل تأثير قيم المجتمع وخزينه الثقافي نصف هؤلاء بـ (السيئين) لأننا نشعر أنهم يعيشون في الجانب المظلم غير المعلن من حياتنا في الوقت الذي يتعزز فيه شعورنا بكوننا (طيّبين).

في مرحلة لاحقة، بعد أن ينضج وعينا نكتشف أن هؤلاء (السيئين) هم أكثر نزاهة منّا نحن (الطيبين) لأننا نعاند الرغبات الدفينة الكامنة فينا بينما هم لا يفعلون.

هذا اعتراف صعب للغاية وشديد القسوة وله تبعاته ولكنه يستبطن مكافآته الجميلة أيضاً.

عليك أن تؤمن منذ البداية أنك وحدك المسؤول عن حياتك وعن أفعالك كلها – بضمنها المظلمة والمسكوت عنها – وأنك متى قبلت بهذا سيمكنك التحكم بزمام أفعالك قبل أن تتسبب لك بقلق عظيم يصعب علاجه.

ما دمتِ مطيعة للرجل فأنتِ طيبة.

ارى أن التعقيد الكامن وراء الطيبة المفروضة على المراة وعادتها المعروفة في وضع حاجات الأخرين ورغباتهم قبل حاجاتها ورغباتها الشخصية يتم عبر برنامج ونظام تلقين وفق الأخلاقيات الاجتماعية المتوارثة.

ففي العادة يفترض في المراة ووفقاً لهذه الأخلاقيات الصارمة أن تكون غير أنانية ومكرّسة لحب الاخرين والعمل على إسعادهم فتكون النتيجة المنطقية أنها تشعر بالوقوع تحت ضغط عبء عظيم من الإثم متى ما خرجت عن نمط المرأة المعطاء ذات الإيثار المطلق للأخرين.

إنها عملية تنميط وقولبة للمرأة لأن تكون في لاوعيها مطيعة للرجل خادمة له طوال حياتها سواء أكان هذا الرجل أباً او اخاً او زوجاً او ابناً او حبيباً. اي منطق هذا ؟ واي عدالة ؟

- ٥ -

كيف نرى الجنس ؟ هل ينتمي إلى الجسد كحاجة أساسية وغريزة مثل الطعام والشراب والنوم ؟ أم هو تابع إلى الروح بتجلياتها وتمظهراتها. اعتقد أن الجنس فعل يمثل نوعاً من جوهر الروح، إذا كان الجنس مشبعاً ومقترناً بالحب فإنه يشفي المرء من خسائره ويخلصه من الشعور بالحيف وينعش مخيلته.

إن الجنس - لا بمعناه الميكانيكي المجرد إنما بوصفة الاتحاد بمن تحب والتوحد في المشاعر والأحاسيس – هو نوع من الانتقال إلى نطاق علوي سماوي، الانتقال إلى منطقة افضل وأكثر جمالاً.

المرأة بهذا المعنى تنقل بشائر العالم الآتي حين تأتي مباشرة إلى الرجل بينما يقف الرجل سلبياً إزاء الفعل.

الجنس حاصل امتزاج الروح والجسد، إنه قرار الروح ينفذه الجسد.

ثقافة الاعتذار من الآخر، هل هي غائبة أم مغيّبة في مجتمعاتنا الشرقية؟ إننا جميعاً قد نرتكب خطأً، هذه سمة تخص السلوك البشري، أما نحن الشرقيين فنحمل فهماً خاصاً عن الاعتذار؛ لأن قيم القوة والأنفة والبطش بالآخر تحكمنا. لا يمكن الانسان كهذا أن يعتذر، وإن أراد الاعتذار فسيصفه الاخرون بالجبن والضعف.

ترى أدبيات علم النفس أن الذي يرتكب خطأ بحق الآخر ولا يعتذر منه يكون متعجرفاً في سلوكه من الخارج وضعيف الثقة بنفسه وغير متصالح معها وهشاً في ثقافته الاجتماعية من الداخل.

مثل هذا الإنسان لا يدرك مقدار الألم النفسي والاعتباري الذي يسببه للشخص الذي أخطأ بحقه، فضلاً عن الألم الذي يلحقه بنفسه بمعاقبة الذات وتأنيب الضمير حين يختلي بنفسه.

كل الذين يدافعون عن أخطائهم أو يبررونها أو يكابرون عليها حمقى، فكل أحمق يستطيع الدفاع عن أخطائه، أما أن تعترف بأخطائك فهذا هو السبيل إلى الارتفاع فوق درجات الناس وإلى الإحساس بالرقي والسمو.

الاعتذار قيمة إنسانية راقية، ينبغي أن يكون جميلاً، بطريقة تمحو على مشاعر الكراهية الناجمة عن الخطأ بحق الآخر، ويثير فيه مشاعر محبة قد تحوله إلى صديق.

الكثير من الرجال لا يعتذر حتى لزوجته، ظناً منهم أن المرأة لا تسامح أبداً ولا تنسى الإهانة، فهي – كما يعتقدون – سوف تظل تتذكر الخطأ مدى الحياة، لذلك يراها ذات قلب أسود، لا جدوى من الاعتذار منها.

ثقافة الاعتذار غير شائعة لدينا، لا نشجع عليها، بعضنا يصف من يعتذر بالضعف، وهناك من يبرر عدم الاعتذار بعدم تقدير الاخر قيمة هذا الاعتذار.

هذه الحالة تسربت إلى الزوج حيث يرى أن زوجته سوف تفعل معه الشيء نفسه، أي تتعالى عليه، تعد نفسها قوية حازمة، فلا يعتذر لتجنب هذا الموقف.

الاعتذار واجب، لا منّةً ولا تفضلاً، الاعتذار ثقافة وسلوك إنساني راقي، متى نتعلمه ونمارسه ونربّي الأجيال عليه؟

- ٧ -

كثيراً ما يصفني زملاء بالنرجسية، بعضهم يتمادى إلى درجة اتهامي بالأنوية، أتأمل كلامهم وأسأل نفسي : هل أنا فعلاً كذلك ؟

لا اتضايق من النرجسية، أحياناً أعدها جزءً من كياني وأحدى سمات شخصيتي، حفّزني هذا الموضوع على البحث عميقاً في أصول العقدة ومعرفة أسبابها ومظاهرها لأرى فيما اذا كانت تنطبق على حالتي.

عرفتُ أن أصل النرجسية يعود إلى أسطورة، مجرد اسطورة، عاشت عبر العصور حتى تحولت إلى عقدة نفسية وحالة تخضع لبحث أطباء النفس. تقول الأسطورة أنه كان هناك شاب وحيد اسمه نرسيس، تعود أن يذهب إلى نبعِ ماءٍ صافٍ خارج قريته، كلما نظر فيه يرى انعكاس صورته، كان شاباً ساذجاً وقليل الخبرة ؛ لذلك اعتقد أن الخيال هو شخص آخر جميل لا يفعل شيئاً سوى أن ينتظره كل يوم، ليحدق في وجهه ويتحدث مثله ويقوم بحركاته نفسها.

من المؤكد أن نرسيس الصغير كان وحيداً أكثر مما ينبغي، فقد ارتبط بهذا الخيال الذي يبدو خلال النبع ووقع في غرامه، ولم يستطع الاكتفاء بمجرد الرؤية عن بُعد، ولكنه أراد أن يكون بجانب هذا الشخص، قادراً على لمسه، لذا فقد ألقى بنفسه في الماء، غاص في النبع لكنه لم يجد خياله، لم يجد سوى الموت، هكذا مات نرسيس من فرط عشقه لنفسه. مات نرسيس، لكن أسطورته لم تمت، تحولت إلى حالة مَرَضية هي حب الذات.

استوحى الشعراء والكتّاب النرجسية، فأعادوا إنتاجها، فقد وجدتها في رواية (صورة دروان جراي) للكاتب الإنكليزي أوسكار وايلد الذي اشتغل على فكرة وجه جميل من الخارج ونفس قبيحة من الداخل، وايلد رأى في النرجسية رمزاً للتناقض الإنساني.

أعودُ لسؤالي، هل أنا فعلاً نرجسية ؟

بحثتُ عن دليل يقودني إلى الإجابة، عدتُ إلى لوحاتي، افتش في تفاصيلها عن ملمح أو مؤشر يؤكد أو ينفي علي التهمة.

لم أعثر على شيء، سوى لوحة وحيدة تظهر فيها طفلة تشبهني، إذاً ما مبرر إلصاق النرجسية بي ؟

أظن أنها ناجمة عن نشوة نجاحات مباغتة أحققها، وما ينهال عليّ من ثناء وإطراء يصل حد الإعجاب، أم هي ضريبة النجاح التي يضطر كل مبدع أن يسددها لحساب الفاشلين والعاجزين من حوله.

مالم أقتنع به في أسطورة النرجسية هو سذاجة نرسيس، لا أظنه ساذجاً بحيث يخدعه خيال في ماء، أظن أنه يبغي الاتحاد مع خياله ليصل إلى جوهر ذاته، أنه العشق حتى درجة الفناء، فالماء يفيد في تحييد صورنا وإضفاء نوع من البراءة والعفوية على تأملنا.

الماء عفوي، ولو أن نرسيس وقف أمام المرآة لوجد حاجزاً يمنعه من الغوص في أعماقها، ولأوقفه سطح الزجاج الأملس ورقائق المعدن من خلفه، وما رأى في المرآة سوى خياله فقط، ولكنه لا يستطيع أن يرى أبعد من ذلك، لن يرى شيئاً من حقيقة ذاته. على عكس ماء النبع، فوجهه

غير ثابت وغير مستقر، لذا فقد ظلّ يسعى يومياً من أجل اكتماله، وربما من أجل ذلك ألقى بنفسه في ماء النبع ليحقّق الاتحاد مع خياله أملاً في الوصول إلى جوهر ذاته.

-٨-

تألمتُ لزميلة شكت لي همومها، قالت : أشعر دائماً بضعف الهمة والتراخي، أجد أن وقتي يضيع في الكلام مع الآخرين، حين أرى من حولي نائمين، أنام ثانية، وإذا رأيت أحدهم يتراخى في فعل، أفعل مثله.

ذكرتْ أيضاً أنها حرمت نفسها من ملذات كثيرة، إلا أنها تشعر بالملل وأحياناً بالاكتئاب، تحس أنها الوحيدة التي يمكن خداعها بسهولة، ويعرضها زملاؤها لأمور مثبطة تفاقم اكتئابها.

تكلمتْ الزميلة بألم وحسرة ودموعها تسيل، حاولتُ جبر خاطرها وإعادة ثقتها بنفسها.

سعيتُ لمساعدتها، اتصلت بأكاديمي متخصص بعلم النفس، وصفت له حالتها وطلبت استشارته. قال إن زميلتك ذات شخصية وصفها بـ (الإيحائية) أي التي تتأثر بالإيحاء، الصفة البارزة لهذا النوع من الشخصية أنها ضعيفة الثقة بنفسها، مترددة، غير قادرة على اتخاذ القرار، فضلاً عن كونها حساسة جداً.

سألته عن سبب حالتها، أجاب : لديها أفكار أو معتقدات سلبية عن نقاط ضعف أو قصور عندها، سواء كانت حقيقية أو خيالية، المشكلة أن الشخص الذي يؤمن بصحة معتقداته وأفكاره السلبية يتعامل معها على أنها حقيقة، لذلك فإنه لا يدقق فيها ولا يختبرها، ولا حتى يفكر في أن يتحداها، فما دام مقتنعا بصحتها، فإنه يتقبلها ويتعايش معها.

قال الأستاذ أن زميلتي هذه تتحدث مع نفسها أكثر ما تتحدث إلى الآخرين، إلا أن حوارها مع نفسها سلبي مكرر إلى درجة أنها ضجرت منه وملّت من كثرة تكراره، باختصار أنها مدمنة.

ما الحل يا أستاذ ؟ سألته، فأجاب :

عليها أن توقف أجراس الإنذار الخاصة بأفكارها ومعتقداتها السلبية وتبطل مفعولها، وأن تعزز ثقتها بنفسها ولا تتأثر بأقوال الآخرين، وتعمل على تغيير رتابة حياتها، أخيراً أنصحها بمراجعة طبيب نفسي. أثارتني عبارته الأخيرة، سألتُ نفسي : كيف ينظر الناس لمن يراجع طبيباً نفسياً طلباً لعلاج أو استشارة، خاصة إذا كانت امرأة ؟

هل يتقبل مجتمعنا ذلك أم تراه يصفها بالمعقّدة وإذا كان رجلاً فبالجنون ؟

ذات مرة أخبرني أحد الأساتذة كان قد عاش ودرس في ألمانيا لأكثر من ربع قرن : أن المواطن الألماني السليم بدنياً ونفسياً يراجع طبيبه النفسي مرة واحدة على الأقل كل ستة أشهر لغرض التأكد من صحته النفسية.

هذا في ألمانيا حيث الاستقرار والرفاهية والأمن وانسيابية الحياة وارتفاع مستويات المعيشة، فكم يحتاج الواحد منّا من مراجعات نفسية ؟

- ٩ -

أدين بدين الحب

أنى سرت

ركائبه

فالحب ديني

وإيماني!

محي الدين بن عربي

قالوا عن الحب كلاماً، لو جمع غطى، ولو نقش في الثرى أينع، ولو رسم على خارطة الوجود، كان أقطاراً بلا تضاريس ولا حدود.

يكتب النقاد عن أدب الحب، وينظر الفلاسفة في شؤون الحب ويتأملون في كنهه وأسراره ومغزاه ومشاكله، ويحلل علماء النفس أسبابه ودوافعه، وينظم الشعراء قصائدهم في وصفه.

أما المجتمع فيقيم له الأعراف والتقاليد والأسيجة والمتاريس، يبيح ويمنع ويعاقب ويكافئ.

يقول الفيلسوف أبوقراط (إنك لتنفذ إلى الناس بخفة الظل أسرع مما تستطيعه برجاحة العقل، إذ إن القلب يتعلق أول ما يتعلق بالروح المرحة، المنطلقة، المُحبّة، والمقبلة على الحياة).

هذا هو الحب، جواز سفرك إلى الآخر، مع الحب لست بحاجة إلى مبرر، الحب يختارنا دون أن يكترث بمصائرنا بتشظينا وحرائقنا، نقع فيه كما لو أنه هاوية أو فخ أطبق علينا في غفلة منا دون أن نملك قدرة

الخلاص منه، أسرى يحف بنا الحزن، في شباك محكمة، بينما ثمة آخر يتلاعب بالفرجة علينا هو المحبوب .. نعشقه حد الهول والهلاك.

في هذا السقوط يجد الفرد نفسه مسكوناً بشخص آخر، وكائن حاضر في العقل والقلب، كائن غريب لا يُعرف مبتداه ومنتهاه، لكنه حاضر راسخ في كل تفاصيل اليوم وفي ساعات النوم واليقظة، ليصير كائناً محتشداً بالحبيب يغمض على طيفه ويصحو عليه.

الحب يبزغ نوراً ساطعاً من جهات لا نعرفها ومن حيث لا ندري ليحيل أحوالنا إلى ضدها: ينقلب الأسى إلى بهجة، الرتابة إلى تجدّد، السكون إلى حركة وحيوية، اليأس إلى أمل، الحزن إلى غبطة تفيض على ما حولنا.

بالحب يتحول القلب إلى حقل فرح عصيّ على تبدل الفصول، أما الجسد فيتحول إلى لهب لا يدركه الإنطفاء.

الحب عصب الحياة، فبدونه تولد ميتة الروح. إننا ولدنا من الحب، ونضيع من غيره، هو من يوحدنا.

دفتر أماني

هامش للقراء

ليس لدي دفتر مذكرات أو يوميات لأضعه بين أيديكم، لا أحب التوثيق ولا الصور، أعيش أيامي كما هي، دون تخطيط مسبق تاركة للقدر أن يخطّ صفحات حياتي كما يشاء.

كل ما أفعله هو أن أعيش اللحظات الراهنة وحسب.

عموماً، أرى أن الحياة تشبه الحديقة، يمكن الحصول على دقائق مثالية، لكن لا يمكن الاحتفاظ بها إلا في الذاكرة.

أعزائي القراء

كل ما أستطيع أن أقدمه لكم مجموعة رسائل إلكترونية (إيميلات) كنتُ بعثتُ بها إلى صديقتي الرسامة أحلام في بغداد خلال مدة دراستي في جامعة ليون بفرنسا. في هذه الرسائل أخبار ومعلومات وإشارات ومواقف وشذرات تعبر عن مكنونات شخصيتي وطباعي ونظرتي لذاتي وللآخر القريب مني والبعيد عني.

قبل أن أترككم مع رسائلي أود الإشارة إلى ملاحظة قد تنفعكم في تفسير وتأويل ما تقرأون وتضيء لكم مسارات تجربتي المتواضعة.

ولدتُ وكبرت في أسرة منحتني الحب والحنان والحرية في القرار والاختيار، هذه البيئة مكنتني من اجتياز مراهقتي بسلاسة دون عقد مثلما ساعدتني في تحقيق نجاحات باهرة في دراستي الجامعية الأولية منها والعليا.

إحدى نتائج ذلك أني قضيت كل ما مضى من سنوات عمري داخل أروقة المدرسة ومن ثم الجامعة، طالبة أو أستاذة، ولذلك اقترنت تجاربي بالفضاء الجامعي، فهو البيئة التي أعيش في ظلالها منذ أن نضجت.

بيئة جميلة أحببتها، منها اكتسبت تجاربي، فيها تعرفتُ إلى زملاء ومعارف كثيرين، لا رغبة لديّ بتوسيع محيط هذه البيئة، إنها تكفيني.

الرسالة الأولى

صديقتي العزيزة أحلام

منذ يومين تسلمتُ شقتي، صغيرة لكنها جميلة، تطل على نهر الرون في مدينة ليون التي تقع عند ملتقى نهري الرون والسون؛ لذلك يطلق عليها مدينة النهرين.

يذكرني اسمها بوطننا بلد الرافدين، دجلة والفرات، اللذان يسيران من الشمال إلى الجنوب مثل عاشقين يتهامسان.

زرتُ متحف الفنون الجميلة في سانت بيير، تحفة رائعة، يعد أنموذجاً مصغراً لمتحف اللوفر، لم تكن متعتي كاملة لأنكِ بعيدة عني.

سأكتب لكِ باستمرار، أكتب لأقاوم الغربة والوحشة والتعاسة، أتذكرين مقولة يوسا أكتب لأني تعيس، أنا أكتب لأني غريبة.

أرق تحية لكِ

المخلصة أماني

الرسالة الثانية

احلامي الحبيبة

هذا الأسبوع عشتُ أياماً جميلة وممتعة، إنه عيد الأضواء، أشهر أعياد مدينة ليون، احتفالات شعبية واسعة، سكان ليون يشعلون الشموع وينيرون الأضواء في كل شوارع المدينة وساحاتها ومنازلها احتفاءً بالسيدة العذراء.

طقس سنوي يبدأ في الثامن من كانون الاول بإشعال الأضواء والشموع في شرفات المنازل، تذكرني بالشموع التي نشعلها في مواقع التفجيرات الإرهابية وفي المقابر، شموعنا تشعل للموتى، وشموعهم للفرح احتفاءً بالحياة.

سألتني طالبة من دولة السنغال :

- هل لديكم في العراق مثل هذه المهرجانات ؟

حاولتُ تجاهل سؤالها خجلاً، إلا أنها كررته فأجبتها :

- لدينا أعياد لكن لا تشبه عيد الأضواء.

رددتُ مع نفسي بحسرة : آه لو تعرفين لمن نشعل شموعنا يا زميلتي السنغالية، إنها للأبرياء الذين تُحصد أرواحهم في الأسواق والشوارع ودور العبادة من جوامع وحسينيات وكنائس على حد سواء، فالموت لدينا عادل لا يفرّق بين إنسان وآخر. وفي الماضي القريب كنا نشعلها في بيوتنا ونحن تحت رحمة طائرات الغرب لنتلمس طريقنا وسط الظلام.

تقبلي تحياتي

أماني

الرسالة الثالثة

عزيزتي أحلام

أود إخباركِ أني حققتُ تقدماً كبيراً في أطروحتي عن أزمة الهوية في الأدب الفرانكفوني – دراسة في روايات أمين معلوف – بمساعدة أستاذي المشرف وتشجيعه.

حين سألني أستاذي عن سبب اختياري لهذا الموضوع وفيما إذا كان هناك رابط بين اختيارك لهذا الموضوع وظروف بلدِك، أجبته : نعم، نعم هناك أزمة هوية لدينا، أزمة هويات كلية وفرعية، أزمة تتطور إلى صراعات، أي أنها هويات قاتلة كما وصفها أمين معلوف، أريد أن أجيب عن أسئلة كبيرة تؤرقني وتشغل تفكيري بخصوص هويتنا الوطنية وهوياتنا الفرعية، فالهويات لا تعطى مرة وإلى الأبد، بل تتشكل وتتحول على امتداد الوجود.

قبلاتي لكِ

أماني

الرسالة الرابعة

احلامي الرائعة

قبل ساعة كنتُ أقف أمام برج إيفل، تعرفتُ على عجوز فرنسية اخبرتني بحكاية رائعة عن رفض باريس الخضوع للمحتل الألماني خلال الحرب العالمية الثانية حينما سقطت تحت دبابات الجنود الألمان، وارتفع علم الرايخ عليها.

قالت إن المقاومة السرية اشتعلت وكان لأهل باريس موقف فلسفي في رفض الاحتلال؛ فحينما جاء هتلر إليها، ووقف أمام برج إيفل وأراد أن يصعد إلى قمته، عطّل عمال البرج المصعد، فاكتفى هتلر بأن يتطلع للبرج وهو في الأسفل.

قاوم عمال البرج الاحتلال بطريقتهم، وقاوم مثقفو باريس الاحتلال بطريقتهم أيضاً، وقاوم جنودنا الاحتلال، لكل منهم له طريقة في التعبير.

أنهت العجوز الفرنسية حكايتها، كانت تتحدث عن تاريخ فرنسا القريب بزهو وفخر، أحسدها عليه وأنا أستذكر اختلافاتنا حول ثوابت وطنية عديدة.

إلى لقاء قريب

أماني

الرسالة الخامسة

صديقتي الغالية

عثرت بين أوراقي على ورقة كُتبت عليها بخطك الجميل قصيدة لغادة السمان كنا نقرأها باستمرار خلال دراستنا في الإعدادية.

وددت ان أعيد إلى ذاكرتك حلاوة تلك الأيام الجميلة ,, إليك القصيدة:

حبـكِ ضيف لا يطاق

يأتي حين لا أكون مستعدة لاستقباله

يدخل من النافذة ويحتل فراشي

يرفع قدميه الموحلتين فوق وسادتي الحريرية

ينفث دخان غليونه داخل رئتي

يردّ على هاتفي ويطرد أصدقائي

يتناول دفتر مذكراتي

ليشطب ما يشاء من مواعيدي

يملي عليّ تسريحة شعري

ولون ثيابي وأقراطي

ونبرة ضحكتي وإيقاع مشيتي

وصابون حمامي ونبضي

حبيبتكِ أماني

الرسالة السادسة

صديقتي أحلام

صباح اليوم حضرتُ ندوة في قاعة الجامعة انصبّ النقاش فيها على الحوار، شارك فيها أكاديميون ومثقفون فرنسيون من بينهم أستاذي المشرف الذي دعاني لحضورها بقوله : أنتم في العراق بحاجة إلى حوار مع انفسكم، ارجو أن تحضري، وإن رغبتِ بالمشاركة في النقاشات فساكونُ فخوراً بك.

سالخص لكِ ابرز ما سجلته من ملاحظات :

١. الحوار ضرورة للتعايش لا غنى عنه ولا مناص.

٢. إن لم يكن الحوار مسيجاً بضوابط ينقلب جدلاً أو خصاماً أو صراعاً، ومن ثم إلى إقصاء وتفرد وتصفية.

٣. نحن إزاء بلاغتين : بلاغة الانتصار، وفيها انحدار واندحار، وبلاغة الحوار، وشتّــان مابينهما في المرجعيات والوسائل والغايات.

٤. الصراع والجدل يفضي إلى العداوة، إذا لم يكن هناك غالب أو مغلوب، أما الحوار فيبقي المجال مفتوحاً، إذا لم يحصل الاتفاق.

٥. الحوار فعل إنساني مرتبط بالإنسان والتحضّر والحداثة.

٦. الحوار قد يكون بالنقد أو بالترسيخ، بالمحو أو بالتأسيس، ثم يكون مع الآخر في إبداعاته، في روحه السمحة، في ثقافته النيّرة.

٧. التحاور قبول للاختلاف والتعدّد، نفهم الآخر بأن الآخر هو ذاتي الأخرى، وأني كآخر ذاته الأخرى.

٨. يبدأ الحوار بمحاورة الذات، مع مراجعها، مع نصوصها المؤسسة، مع إبداعاتها، مع مخيالها.

٩. ليس من طريقة للتعايش إلا بقبول الآخر واحترامه في إطار التسامح.

١٠. الهوية قد تصبح ردّة، رديفاً للتعصب.

١١. لا حل للخروج من أزمتنا إلا بالإيمان بالذات، باحترام الاخر، بالتمسك بالحوار، باعتماد المرونة في التعامل، بالتفاعل الإنساني وتبادل المصالح.

تمنيتُ لو استمتعتْ نخب بلادنا لهذه النقاشات العميقة عسى أن تؤمن بالحوار أسلوباً للعيش والشراكة في الوطن بدلاً من حوار العنف والاقتتال والاقصاء.

آسفة إن أطلتُ عليكِ، أجمل تحية لكِ يا غالية

المخلصة أماني

الرسالة السابعة

عزيزتي أحلام

يسرني أن أضعك في اهتمامات الصحافة الفرنسية هذه الأيام، حيث يطلق صحفيون فرنسيون حملة لإهداء كتب إلى الرئيس ساركوزي في عيد ميلاده.

حملة إهداء الكتب لساركوزي اقترنت بانتقادات له بوصفه العدوّ رقم واحد للنبيلة الفرنسية مدام دو لافييت التي عاشت في القرن السابع عشر التي تعد بنظر مؤرخي الأدب الفرنسي مؤلفة أول رواية فرنسية حديثة هي رواية (أميرة كلييف)، أشهر مؤلفاتها، ولم تضع مدام لافييت اسمها على الرواية التي اشتغلت على تحليل أرق المشاعر الإنسانية وخاصة الحب، وذلك امتثالاً للتقاليد الاجتماعية التي كانت تمنع السيدات من كتابة أسمائهن على الروايات.

ويصف صحفيون ساركوزي على انه يعاني من مرض الحساسية من القراءة، علماً أن الرئيس .هنأ الشعب الفرنسي من صالة مكتبة قصر الإليزيه، حيث تظهر رفوف الكتب المزدحمة بكل المعارف الإنسانية، وقال أنه لم يقرأ أياً من هذه الكتب المصفوفة بعناية بالغة خلفه.

تبدو هذه الحملة ضد ساركوزي طبيعية، فلطالما أعطت النخب السياسية الفرنسية الثقافة اهتماماً بالغاً، بل أنهم يعدّون إدارة الدولة لحركة الثقافة واجباً وطنياً وليس من باب الرفاهية.

القضية إذاً لا تتعلق بعدم اهتمام ساركوزي بالفن والثقافة، بل تتعلق بالقيمة التي تتمتع بها الثقافة الفرنسية. هذا الأمر فطن إليه رؤساء فرنسا

السابقون من اليمين أو اليسار، حيث ارتبط اسم كل منهم بإنجاز ثقافي ما زال مخلداً.

ولم تتردد فرنسا في منح مثقفيها امتياز المناصب السياسية، فالرئيس اليميني شارل ديغول اختار الروائي والمفكر اليساري أندريه مالرو وزيراً للثقافة في حكومته بعد الحرب، ثم وزيراً للثقافة في الجمهورية الخامسة عام 1969، وهو العام الذي استقال فيه ديغول تحت تأثير الثورة الطلابية.

وكان ديغول فخوراً بأن يعين نجله سكرتيراً للروائي الفرنسي فرانسوا مورياك، بينما لم يتردد الرئيس الاشتراكي المحافظ فرانسوا ميتران في إختيار اليساري المتمرد رفيق غيفارا في حرب العصابات ريجيس دوبريه مستشاراً له في ولايته الأولى والثانية، بعد أن اسهم بإطلاق سراحه من السجون البوليفية.

في سياق هذه التقاليد والإرث جاءت حملة انتقادات ساركوزي.

تذكرني هذه الانتقادات بموقع الثقافة في عقول سياسيي بلدنا، ومدى تجسير العلاقة بين السياسي والمثقف. فالسياسي لدينا يريد من المثقف أن يكون تابعاً له، يمدحه ويسوّقه، وحين يسلك المثقف سلوكاً آخر مغايراً لما يريده السياسي فإنه يهمّش ويقصى وقد يخطف أو يقتل، وفي أقل تقدير يهجّر ليقضي حياته في المنافي.

تحياتي لك

المخلصة أماني

الرسالة الأخيرة

صديقتي العزيزة

هذه رسالتي الأخيرة إليكِ، سأعودُ قريباً إلى حضن الوطن، فقد اكملت إجراءات حصولي على شهادة الدكتوراه من جامعة ليون.

ساعودُ إليكِ، إلى أبي وأمي، إلى أخي وأختي، إلى طلابي، إلى وطني الحبيب، إلى بغداد العزيزة، إليكم ومن أجلكم ساعود.

عُرضتْ عليّ أكثر من فرصة عمل هنا في جامعة ليون، بعض زميلاتي سيبقين هنا للعمل على أمل الحصول على الجنسية الفرنسية، إلا أني رفضتُ كل العروض. لن أستبدل وطني بآخر، ولن أرضَ بغير طلابي وجامعتي، لن أموت إلا في العراق وإن كان مريضاً لكنه لن يموت، انه مثل طائر العنقاء ينبعث من الرماد.

تعلمتُ الكثير وتوسعت مداركي وازددتُ ثراءً معرفياً واكتسبت تجارب وخبرات لكني افتقد حميمية العلاقات الإنسانية وحرارتها.

اشتقت لقبلة أبي على جبيني وتحية أمي وهي توقظني صباحاً وتقول: صباح الخير ماما، اشتقت لدجلة ولشارع أبي نوّاس، اشتقت لفلافل فالح اللذيذة وقيمر العرب وكاهي يوم الجمعة الممتع، اشتقتُ لجدالات مثقفي شارع المتنبي ومشاكساتهم.

اشتقت لتراب بغداد وضجيج شوارعها، لأغاني ناظم الغزالي ومقامات يوسف عمر، اشتقتُ إليكِ أيتها العزيزة.

إلى لقاء قريب في بغداد

دكتورة أماني

هامش بعد قراءة الدفاتر

جلبتُ الدفاتر الثلاث إلى البيت، تفرغتُ لقراءتها، قرأتها قراءة استكشافية أولى، وتحليلية في المرة الثانية، وسجّلتُ ملاحظات على كل دفتر، بل على كل فقرة في المرة الثالثة.

وجدتُ في الدفاتر ما يصلح لكتابة مادة روائية بعد إعادة إنتاجها، سأقول الأشياء كما تحصل فعلاً لا كما أفترض أو أحبّ أن تحصل. اكتشفت بعد قراءة الدفاتر ان هناك أشياء أحتاج لقولها من خلال الكتابة، فالكلمات التي تستحق أن تقال هي التي تولد من الحاجة لقول تلك الكلمات بالضبط.

عرفتُ أشياءً عن النساء الثلاث ولم أعرف أشياء أخرى، لكن الأشياء التي لا يعرفها الكاتب أكثر أهمية من تلك الأشياء التي يعرفها عند الكتابة، لأن ما نعرفه يبدو ماثلاً أمامنا، أما ما نجهله فنقوم بفعل تخييلي لنراه أمامنا، وذلك امتياز إضافي دافع للإبداع عند الكتابة.

هذه هي الرواية : " كتابة ما لا تعرفه عمّا تعرفه ". إذاً سأكتب عن ذلك الجزء من الحقيقة القابع في أعماق كل كذبة، فالروائي كما هو المحلل النفسي ليس بالأمر المهم فيما إذا كان يكتب صدقاً أو كذباً ؛ لأن الأكاذيب يمكن أن تكون ممتعة وبليغة وكاشفة، شأنها شأن أية حقيقة ندّعي قولها بصدق.

ولا غرابة في ذلك " ففي بحثك عن الحقيقة كن متاهباً دوماً لما هو غير متوقع ؛ لأن الحقيقة منهمكة في البحث عنها وباعثة على الحيرة عند إيجادها ".

عموماً الحقيقة شديدة التعقيد للغاية وتستعصي على النظرة الأحادية، في روايتي التي ساكتبها عن نسائي المثـقفات سيختلط الصدق بالكذب، فالروايات هي حكايات بالطبع ؛ لذا فهي تحكي عن أكاذيب حتماً بالمعنى المحدد والصادم لكلمة أكاذيب، ولكن كل روائي يحاول عبر الاستعانة بهذه الأكاذيب أن يكشف من الحقيقة المخبوءة والكامنة في قلب هذا العالم.

هكذا قررت المضي في كتابة روايتي بالعنوان نفسه : " دفاتر مثـقفات "، ساكتب كما أرغب واشتهي، دون أن ألتفت إلى خطوطهن الحمراء أو الخضراء، فالكتابة أمر يخصّني وحدي.

ساكتب احتفاءً بالحياة التي أراها جميلة حد متاخمة الرعب، ومرعبة بالوقت ذاته حد متاخمة الجمال، ساكسر صمتي، وأصعب شيء في الحياة أن نكسر الصمت بالكلمات، وأن نكسر الكلمات بالصمت.

سافتش عن روح الصراع في نفوسهن وأكشفه أمامهن، فلو كنا جميعاً نمتاز بالحنو والكرم في التعامل ولا نحمل عناصر صراعية في سلوكنا مع بعض مع البعض، فربما لم يكن ليوجد شيء يستحق الكتابة عنه.

ساكتب وأنا أبتسم كمهزوم يسعى إلى سلب لذة المنتصر بابتسامته.

لقاءات متواصلة

-١-

في أول لقاء لي معهن في نادي الجامعة، قلت :

بعد أن قرأت دفاتركن وسجّلتُ ملاحظات عنها، أود أن أقترح تحويلها إلى مادة روائية، أنا أكتبها، ستلقى قبولاً أفضل من الكتب، فالرواية ممتعة تجذب القرّاء وتجعلهم يتفاعلون معها أما الكتاب سيكون مجرد معلومات وحقائق تخلو من عنصر التشويق.

اومأت أماني وأحلام برأسيهما دليل الموافقة على المقترح، إلا أن آمال اعترضت قائلة :

- أرى أن المرأة هي الأقدر على رصد أزمتها وحواريها الداخلية وعوالمها المستقبلية.

من الواضح أن آمال مازالت تحت تأثير تداعيات أزمتها مع زوجها وفشل تجربتها مع باسل، ومواقفها إزاء الرجال انعكاس لما مرت به.

لم أشأ تصعيد حدة الجدل معها، اكتفيت بالقول :

- لكنّي، وبعد قراءة الدفاتر شعرتُ أنني أتعلمُ أشياءً عن المرأة لم أكن أعرفها، وسأكون أميناً على نقل الحقيقة كما هي، لا كما أحبّ وأرغب.

لم تقتنع وأضافت بعناد :

– لا، أستاذ سامر سيكون من الخسارة الفادحة أن تكتب النساء بأسلوب الرجال، هذا سيجعلها عاجزة عن الإحاطة بمدى العالم وتنوعه، أسلوب المرأة يعبر عن الوجدان أما أسلوب الرجل فيعبر عن العقل.

تناغمتُ مع طرحها تمهيداً للالتفاف عليه :

– هذا صحيح، كلامكِ دقيق وتشخيصكِ صائب، أتفق معك في أن هاجس المرأة يتمحور حول رغبتها في كسر القوالب التي يضعها فيها الرجل، صورة المرأة في رواية المرأة هي نقيض تماماً لصورتها في ذهن الرجل أو روايته، أدرك هذا الأمر، لكنها في الوقت نفسه لا تعكس الصورة المطلوبة للمرأة كما تريدها الكاتبة، ذلك أن الروائية محكومة بالشرط الواقعي الذي تتحرك البطلة من خلاله، أي محكومة بإرثها وتربيتها وثقافتها ووعيها ومحيطها الاجتماعي.

ظلت آمال تصغي دون أن تقاطعني، بعد أن أنهيتُ كلامي، ابتسمت وردت :

– كلامُكَ جميل مثل كلّ الرجال لكنه غير كافٍ، أريد ضمانات، أن تلتزم به أثناء كتابة الرواية.

– ما طبيعة الضمانات التي تريدين ؟

سألتها وأنا أنظر في عيني أماني طلباً للمساندة، فهمت الرسالة وردتْ:

– أنا أضمن أستاذ سامر، أعرفه جيداً يفي بما يعد.

ردت آمال بكلام يختلط فيه الجدل بالهزل :

– وإن انحرف وكتب حسب ما يملّي عليه عقله الباطن وخزينه الثقافي، أقصد ثقافته الذكورية، ما هي عقوبته ؟

لم يعجب أماني هذا الرد :

– لا ست آمال أرجوكِ، كلامكِ قاسٍ بحق أستاذ سامر.

تضامنت احلام مع أماني وقالت :

– نعم ست آمال، أستاذ سامر كاتب مبدع ومثقف راقٍ يؤمن بحرية المرأة وحقها في الاختيار وتقرير مصيرها، ارجو أن تسحبي كلامك.

وجدت آمال نفسها محاصرة تماماً ولا خيار أمامها سوى التراجع.

– آسفة، أعتذر من أستاذ سامر ومنكما، قد أكون فشلتُ في التعبير عمّا أريد، لم اقصد التقليل من قيمة أستاذ سامر أبداً، واضح أنه يقرن الثقافة بالسلوك، اسحب كلامي وأشكره مقدماً ؛ لأنه سيضع تجاربنا أمام المجتمع.

ابدت أماني وأحلام ارتياحهما بعد أن كسبتا جولة النقاش :

– بهذه المناسبة، سأدعوكم لوجبة غداء.

صفقت أحلام لدعوة أماني وقالت :

– قبل الغداء سأجلب لكم أقداح عصائر، لنشرب نخب الرواية.

نهضت ورافقتها آمال، نظرتُ في عينيّ أماني ثانية :

- كنتِ رائعة، ممتن منكِ دكتورة.

- أنتَ الأروع، تصرّف كما تملي عليك ضرورات الصنعة الروائية وشروطها الفنية.

- سيعجبكِ العمل.

- متأكدة من ذلك.

- ٢ -

بعد هذا اللقاء الذي انتهى بغداء تخللته الطرائف، تكررت اللقاءات اصبحتُ قريباً منهن، اقترحتُ عليهن إطلاق تسمية A_3 على گروبهن، قالت آمال :

– لماذا A_3 ماذا يعني ؟

أجابتها أحلام بسرعة :

– أسماءنا الثلاثة تبدأ بحرف A بالإنكليزية.

– آه .. حلو .. تسمية جميلة.

إلا أن أماني لم تعجبها التسمية :

– أنا أقترح إضافة أستاذ سامر إلى الگروب لتكن التسمية : $A_3 + S$.

علقت أحلام :

– هذه معادلة كيميائية.

أضافت آمال :

– معادلة متوازنة' لا قلقه ولا متأرجحة.

من خلال أحاديثهن بشأن الرواية استنتجت أنهن لا يفرقن بين الرواية والمذكرات أو اليوميات او السيرة الذاتية، باستثناء أماني التي كانت الأقرب إلى أفكاري بحكم تخصصها الأكاديمي وقراءاتها لروايات باللغة الفرنسية.

في أحد اللقاءات طرحت أحلام سؤالاً مهماً بشأن تقنية الرواية :

– هل ستكون روايتنا من نسج الخيال، أم محاكاة لتجاربنا ؟

أدركتُ مغزى سؤالها، ترغب بتثبيت وجهات نظرها إزاء ذاتها وفنها ومواقفها حيال الإبداع والحرية والحب والجنس.

أجبتها :

– سؤالك هذا يا فنانة يا رومانسية كان قد أجاب عليه أرسطو قبل قرون أتحبين أن تسمعي ماذا قال ؟

– نعم، بالتأكيد، وأرغب بسماع جوابك أنت أيضاً.

– أظن أن جواب أرسطو يكفي، من أكون لأزايد عليه ؟

– أترك التواضع وهاتِ الإجابتين.

– قال أرسطو " لا يوجد خيال مطلق، كل خيال يتكئ على واقع "، هل هذا يكفي ؟

– لا، أصرّ على سماع إجابتك، دعنا من ارسطو وفلسفته العقيمة، لا تتهرب بطريقة مخاتلة.

– أنا أقول بصراحة، الواقع بائس، ونقله إلى الأدب كما هو، عملية قتل للإبداع، لا تضيف شيئاً، إنما هو مادة أولية، أو خامة كما يطلق عليه أهل الفن، مهمة الكاتب أن يعيد إنتاج الواقع ليقدمه على وفق رؤى إبداعية ذات لذة ومتعة تشدُّ القارئ وتشركه في العمل الإبداعي لا متلقياً سلبياً له.

صفقت أحلام :

- رائع، محاضرة عظيمة، أنتم الرجال أساتذة في إقناع النساء ومصادرة وجهات نظرهنّ.

- لا، بالعكس المرأة مصدر الخير والنماء والحياة، وقد تكون مصدر الشر والدمار والموت، هذه قضية طبيعية حسب الظروف الذاتية والموضوعية لتكوين المرأة وتربيتها ووعيها وخصائص المجتمع ومرجعياته الثقافية ومنظومته الأخلاقية.

ما أثار استغرابي في لقاءاتنا التي تواصلت في كافتيريا قاعة أفق ونادي العلوية ومطعم أغصان الزيتون وغيرها من الأماكن ؛ أن آمال لم تعد مجادلة كما كانت، بدأت تميل للصمت وكأنها تتأمل. تكتفي بالنظر لي مع ابتسامات خفيفة توحي بتوافقها مع ما أطرحه من أفكار.

الصمت ليس من طبيعتها، هي مجادلة بامتياز، أحياناً تجادل من أجل الجدل، وللفت الانتباه إليها، إلا أن هذه الممارسات بدأت بالتلاشي تدريجياً، أكاد أقول أنها انتهت تماماً.

مع كل التغيّر استمر حذري متوقعاً أن تباغتني بهجوم كلامي لتثبت أنها مازالت قائدة الكروب، لكن هذا لم يحصل.

تولدت لدي قناعة شبه أكيدة، أن ما كتبته آمال في دفترها لا يمثل كل الحقيقة، أخفت الكثير، سواء عن علاقتها مع زوجها السابق أو في تعاملها مع باسل والانهيار السريع لعلاقتها به.

وجدتُ نفسي أمام تحدٍ لقدراتي، كيف أدفعها لكشف ما تخفيه وما سكتت عنه وامتنعت عن كتابته. أتوقع أن كثيراً من المعلومات والحقائق مازالت طي الكتمان، بكشفها ستكون الرواية أكثر إثارةً وتشويقاً، كيف استنطقها دون استفزاز؟

في الطب النفسي، مفتاح شفاء المريض في تشجيعه على البوح بهمومه ومعاناته، للتنفيس عن كربه وضيقه، سيخف الألم عنه لمجرد أن يتكلم ويشكو أوجاعه، لكن من هو الطبيب الحاذق الذي يدفع آمال للبوح عن أسرارها المكتومة ؟

أنا من ينبغي عليه أن يتقمص دور الطبيب لا من أجل شفاءها، فتلك ليست مسؤوليتي، وإن حصل ذلك فهو نتيجة عرضية لا بأس بها، لكن من أجل أن تكتمل فصول الرواية، فآمال هي الجزء الأكثر حيوية فيها.

أما أحلام فقد دفعتها اللقاءات المتواصلة إلى مزيد من التقارب معي، أصبح المزاح والمقالب والطرائف المتبادلة أمراً طبيعياً بيننا حتى أنها ألغت الألقاب، ترفض أن أناديها بمفردة ست :

– أي ست، أي بطيخ، ناديني باسمي فقط.

قلتُ لها مازحاً :

ـ ما رأيك أن أناديكِ حلّومه ؟

ـ عسل، رائع وأنا أناديك سومه.

ـ عظيم، حلومه وسومه كلاهما من بحر شعري واحد.

ـ أي بحر هذا ؟

ـ البحر الأسود المتوسط.

ضحكت بصوتٍ عال :

ـ لا سومه إنه بحر الحب.

قالتها وهي تضربني برفق على كتفي.

ترويض النمر الجريح

بعد منتصف ليل بغدادي بارد، وصلتني رسالة نصية من هاتف آمال:

" ليلتك سعيدة أستاذ سامر، آسفة للإزعاج، ممكن نلتقي على انفراد، لديّ كلام مهم معك، أنت حدّد الزمان والمكان حسب ظروفك، أعتذر.. تقبّل تحياتي .. ".

استغربت، لماذا تراسلني بهذا الوقت المتأخر، وما هو كلامها المهم معي ؟ ولِمَ على انفراد وليس أمام أماني وأحلام.

ترددت، ثم أجبتها :

" طابت ليلتك، شكراً لرسالتك المهذّبة، لا مانع أن نلتقي صباح الغد في كافتيريا ليالي بغداد .. أرق تحياتي ..".

على الفور، ردت برسالة ثانية :

" أسعدني جداً ردّك، سأكون بانتظارك الساعة الحادية عشرة ".

إذاً، هي فرصة ذهبية، إيّاك أن تخسرها، ليس الموضوع أن يكون كلامها مهماً أو غير مهم، عليك استجوابها لترغيبها بالكشف عن المخفي من حياتها، كن بمنتهى الحذر، اختر الكلمات والعبارات بدقة، إيّاك أن تستفزّها أو الظهور بمظهر الجلاّد الذي يحاكمها. أستعمل قاعدتي : خذ وطالب، وما لا يدرك كله لا يترك جلّه. إن نجحت بكسب ثقتها واطمأنّت إلى أن أسرارها بأيدي أمينة سينفتح أمامك صندوق أسرارها الدفينة.

هذه هي قواعد الاشتباك معها، لا تنسَ اسم العملية : ترويض النمر الجريح.

سبقتني آمال إلى الكافتيريا، انزوت خلف طاولة في الطابق العلوي، نهضت حين شاهدتني أمامها، صافحتني بحرارة.

- ماذا تشرب ؟

- أنا سأطلب النسكافيه لي ولكِ.

- كيف عرفت أنها مشروبي المفضل ؟

- لا أعرف، لكني أبدأ الخطوة الأولى في ترويضك.

- هل أنا مريضة ؟

- أتعلمين أنك سألتِ ثلاثة أسئلة ولم يمضِ على لقاءنا سوى دقيقة واحدة؟

- الحياة حبلى بالأسئلة، الكثير منها تظلّ بلا إجابات.

- طرح الأسئلة يعني أننا نفكر صح، الإجابات غير مهمة.

- أنت مثقف من نوع مميز لا تشبه الآخرين.

- هذا مدح أم ذم ؟

- لا أدري، المهم أنت مختلف عنهم.

- تقصدين الرجال الذين مرّوا بحياتك ؟

- نعم.

- ها أنا أمامك، قولي ما يدور في رأسك.

ارتشفت رشفة من النسكافيه، ثم أشعلت سيگارة، سحبت نفساً عميقاً، بدأت تتحدث بهدوء وبطئ :

– أريدك أن تصغي ولا تقاطعني إلى أن أنهي كلامي.

– هل هذه أوامر؟

ابتسمت :

– لا تكن حساساً، انتهى زمن توجيه الأوامر، أنت من سيوجّه لي الأوامر، المهم، أردت إخبارك بموضوع يخص المجلة عسى أن تساعدني، بدأت أوضاعها تتدهور ومستواها يتراجع، لم أعد أدير العمل بصورة منتظمة، أخشى أن يضيع كل ما بذلته من جهد، وما حققته المجلة من نجاحات في الوسط الإعلامي، أنت الوحيد من يستطيع أن ينقذها من التدهور، بثقافتك ومهاراتك وعلاقاتك في الوسط الجامعي، أعرف أن لديك انشغالات، لا أريد منك دواماً كاملاً، احضر في الأوقات التي تناسبك، معك مجموعة من المحررين، ضع لهم خطة عمل وأشرف عليهم، ما رأيك أن تكون رئيس تحرير المجلة وأحتفظ أنا برئاسة مجلس إدارتها ؟

توقفتْ عن الكلام منتظرة ردّي، لم أرد مباشرة، ارتشفتُ رشفة أخرى من النسكافيه، نظرتُ في عينيها، رأيتُ فيهما غير الذي قالته :

– هذا هو المطلوب مني ؟ العمل معكِ فقط أم هناك غايات أخرى، تكلّمي بصراحة دون مراوغة.

- أتراني مراوغة ؟

- جداً.

- صحيح، لذلك فشلت.

- فشلتِ في الحب، أم في العمل ؟

- في الاثنين، ها أنا أطلب نجدتك.

- أساعدكِ في العمل، أما علاقتنا فهي زمالة فقط.

- أممنوع أن نكون أصدقاء ؟

- أخشى أن تتطور الصداقة إلى ما لا تحمد عقباه.

- هل أنا خطيرة إلى هذا الحد ؟

- تجربتك مع زوجك وباسل تشي بذلك.

- ما ذنبي إذا كان الأول ضعيف الشخصية والثاني يريد إذلالي.

- أنتِ من اختارهما !

- أنت محق في هذا، أتحمل مسؤولية اختياري الخاطئ.

- لماذا أخفيتِ الكثير عن تجربتكِ معهما ؟

- سأخبرك عن كل شيء بعد أن تلتحق بالمجلة ستكون قريباً مني.

- هذا اعتراف بأنكِ أخفيتِ !

- نعم، ليس كل ما يعرف يقال.

- لكني لا أستطيع إكمال الفصل الخاص بك في الرواية قبل أن تبوحي لي عمّا أخفيتيه.

- أعدك، لن أخفي عنك شيئاً.

- سأعمل معك لكن عليك أن تدركي أني لا أشبه زوجك ولا مثل باسل، بعبارة أخرى لا أصلح أن أكون زوجاً أو حبيباً لك.

- لا أريدك زوجاً ولا حبيباً، أريدك صديقاً مخلصاً، أشكو له همومي، يصغي ويتفهم، ينصحني ويرشدني، يصوّب خطواتي، يوقفني إذا تماديت في أمر غير مقبول.

- من يتحكم بقراراتك. عقلك أم قلبك ؟

- عقلي قادني إلى زوجي، وقلبي دفعني إلى باسل، وفي الحالتين أخفقت.

- لن أتعبك أكثر، سأعمل معك، وأكون صديقاً لك، شرط أن لا تظلّي أسيرة لتجاربك السابقة، وتبدأي حياة جديدة متوازنة.

- أنت من يحفّزني على تجاوز أزمتي.

- سأحاول، عليك امتلاك الرغبة والإرادة.

- معك، سأمتلكهما.

متعة الترقب

أيعقل أن أمامي أم أدرك مغزى اهتمامي بها ؟ أتحسب أن ما أقدمه إنما مسألة عادية أحدث بدافع التشجيع لوجه الله ؟ هل خالها حسبها الأنثوي أم أنها تفهم اللعبة وتتغابى لغرض لا أعرفه الآن على الأقل.

أستنتج أحياناً من طريقة تعاملها معي أنها تريدني أن أبلغ درجة الانقياد فتشتعل مشاعري لأستسلم لها وأقدم فروض الطاعة والولاء.

هذا الاستنتاج غير معزز بدلائل قوية وقاطعة، تصرفاتها وحواراتها متذبذبة، مرة تكلمني كأي زميل في الجامعة، وثانية تعتني صديقاً، وبين هذه وتلك ظلت روحي تتعذب بسياط حبها.

أتمنى أن تقولها بصريح العبارة : أنت مجرد زميل لا أكثر، وكل ما تقدمه لي، لم أطلبه منك، أنت من تتبرع به.

لابد من خطوة جريئة تضعها على المحك، لأغادر التشجيع والاهتمام الثقافي إلى الالتفات إلى زينتها ومظهرها لعلّي أسبر أغوارها.

أقدم لها هدية ذات دلالة أنثوية، لا غالية الثمن فترفضها، ولا زهيدة فأنزل بنظرها.

اقتنيت قلادة جميلة مع قرطين من معرض للمقتنيات الفولكلورية والتراثية في شارع المتنبي، وضعتها في مظروف أنيق.

في أول لقاء بعها في الجامعة أخبرتها أن ثلاث مفاجآت سعيدة تنتظرها.

اندهشت:

– ثلاث مرة واحدة !

– نعم، الأولى مكافأة جلبتها لكِ من الجريدة.

سلمتها ظرف المكافأة.

– أما الثانية، الكتاب الذي تبحثين عنه، الرجال من المريخ والنساء من الزهرة.

ما أن سمعتْ بعنوان الكتاب حتى تهلهت أساريرها :

– معقولة ! كيف حصلت عليه ؟

– لا عليك، تفضلي هذا الكتاب.

– أنتظر الثالثة.

قالتها وهي تنظر لي بلهفة.

– الثالثة هي الأجمل.

أخرجتُ الظرف من درج المكتب، قلت :

– هذه قلادة وقرطين من مقتنيات الفولكلور الشعبي، هدية تذكارية لكِ أيتها الجميلة.

أخذت المظروف وهي صامتة، على الفور فتحته.

– الله ! عاش ذوقك، جميلة جداً، أحب هذه المقتنيات، هذا يوم المفاجآت بحق.

– تستحقين كل ذلك.

- غمرتني بالفرح وطوقتني بجميلك.

- كل ما أريد منك أن لا تتخلي عن صداقتنا.

- مستحيل، إلا إذا كان هذا قرارك.

- قراري البقاء معكِ للأبد.

الحمد لله، يا لها من لحظات ممتعة، لذة الحب في ذلك الانتظار والترقب، بل حتى في العذاب الناجم عنه.

حوار في مرسم

-١-

تميزت علاقتي مع أحلام بالانسيابية، لا عقد ولا تحفظات، أظن أن سنوات حياتها في بريطانيا برفقة والدها الطبيب الجراح كانت قد رسمت ملامح شخصيتها ومنحتها الثقة بالنفس والتعامل الندّي مع الرجل.

ما كتبته في دفترها حمل منظومة أفكار ورؤى ناضجة، تحاول إخفاء ما تسرب إلى لاوعيها من نرجسية، إلا أن بعض أنويتها المتضخمة ينعكس في سلوكياتها سواءً معي أو مع صديقتها أماني، لم تكن علاقتها مع آمال ذات عمق يسمح باستنتاج مؤشرات منه.

أخبرتني أماني برغبة أحلام بدعوتي لزيارة مرسمها وإجراء حوار صحفي معها بشأن تجربتها التشكيلية، سألتها :

- لماذا لم تطلب مني ذلك مباشرة ؟

- قد تخجل.

- حسناً، لا مانع.

- سأبلغها موافقتك، أنتما حددا التوقيت المناسب.

- ٢ -

أمام البوابة الخارجية لمنزلها في الوزيرية وقفت مع والدها لاستقبالي، قدمتني له :

- بابا أقدّم لك صديقي أستاذ سامر، كثيراً ما حدثتك عنه.

صافحني الرجل بحرارة، وقال :

- أتشرف بك أستاذ سامر، سمعتك الطيبة سبقتك.

- أنت الشرف دكتور، سعيد برؤيتك.

إصطحباني إلى صالة الضيوف عبر ممر جميل يشطر الحديقة إلى شطرين :

في الصالة أعاد الرجل عبارات الترحيب والثناء والإطراء، قال :

- حدثتني أحلام عن وعيك ورقيك وثقافتك، أنا سعيد لأن أبنتي تعرفت على رجل بمواصفاتك، أنت تعرف ان علاقتي بها علاقة صداقة، لا تخفي عنّي شيئاً حتى عن حياتها الخاصة، أنا من ربيتها بعد رحيل والدتها، لم أرتبط بامرأة إكراماً لها، أردتها أن تنشأ وتكبر في بيئة صحية دون مشاكل أو عقد نفسية، شجعتها على الرسم بعد أن اكتشفت موهبتها، لا صديقات لديها سوى دكتورة أماني صديقة عمرها، أرجو أن لا أكون ثقيلاً إن طلبتُ منك أن تكون الضلع الثالث في هذا المثلث، يشرّفني أن تكون صديق ابنتي، تعاملها كما تعامل دكتورة أماني، أنا لم أقصّر معها، لكن لكل مرحلة من العمر احتياجاتها النفسية، أحلام بهذا

العمر لم تعد بحاجة إلى أب بقدر حاجتها إلى صديق، يفهمها، يحاورها، يصغي لما تقول، يشاركها متعة إبداعها الفني. المهم، لم أجد إنساناً غيرك، أثق به، يضطلع بهذا الدور.

لم التفت لأحلام إلا بعد أن أنهى والدها كلامه، وجدتها تصغي بانتباه وتترقب ردّي، واضح ذلك من نظراتها وملامح وجهها.

قبل أن أردّ على كلام والدها، سبقتني موجهة الطلب إليه :

ـ بابا أطلب منه تعهداً أن يعاملني مثل أماني، لا أن تكون مجرد صداقة، لا لون فيها ولا طعم ولا رائحة، ترى أستاذ سامر خطير يتلاعب بالألفاظ، يجيد اللعبة اللغوية باحتراف، بالعربي الفصيح " إيشوفّك حنطة ويبيع لك شعيراً ".

ضحكت وضحك والدها فيما ظلت هي تنظر لي بعينين تخفيان أكثر ما تظهران.

قلت :

ـ دكتور، أولاً أنا اشكرك وأعتز بشهادة إنسان راقٍ مثل حضرتك، وثانياً أنا افتخر بجد أن تكون لي صديقة مثل أحلام، فنانة مبدعة وإنسانة مثقفة ذات عقلية متحررة منفتحة، خالية من العقد. أعدك سأتعامل معها مثل دكتورة أماني، سأساندها ولن أتخلى عنها أبداً.

نهضت أحلام واحتضنت والدها وقبّلته :

ـ اشكرك بابا، لن أطلب منك شيئاً بعد اليوم، أعرف أني أتعبتك.

اندهشتُ فعلاً، هل يستحق الأمر كل هذا ؟ إذاً هو سيناريو معد سلفاً، الإيعاز من أحلام والتنفيذ أنجزه والدها.

استأذن الرجل وخرج لارتباطه بمواعيد عمل في المستشفى الذي يديره، فيما اصطحبتني أحلام إلى مرسمها المطل على الحديقة.

قاعة كبيرة ذات نوافذ واسعة، قطّعت داخلياً بقواطع إلى مكتب ومشغل، على الجدران علقت لوحات لأحلام وأخرى لفنانين عالميين.

جلسنا حول المكتب الدائري، أمامنا قفص فيه زوج من طيور الكناري ذات الألوان الزاهية.

ـ أي نوع من الموسيقى تحب أن تسمع ؟

ـ أعشق الكلاسيكية.

ـ أذواقنا متطابقة.

ـ لأننا ننتمي إلى مدرسة واحدة.

ـ أي مدرسة ؟

ـ مدرسة حَبْ سيگاير علك.

ضحكت ونهضت لتدور حولي، قربت فمها من أذني وهمست :

ـ فعلاً راح تعاملني مثل أماني ؟

ـ لم أفهم بالضبط ماذا تقصدين بمعاملة أماني ؟

ـ أماني تنقل لي يوماً بيوم ما تقدمه لها وأسلوب تعاملك معها، تقول:

اشعر معه بالحنان وعدم الغربة، هو الوحيد في الجامعة الذي يهتم بي، لم يطلب مني أي حاجة لقاء رعايته وكرمه، أحس به كائناً نادراً، يحترم خصوصياتي وخياراتي، لم يجبرني على أي شيء لا اريده، احياناً احسّ بالخجل لأني لم أقابله بالمثل.

شعرت براحة تامة وأنا أستمع لهذا الكلام غير المباشر لأماني، تساءلت مع نفسي بحسرة : لماذا لم تقولي لك كلامك هذا مباشرة، تتركيني أسير الهواجس والقلق والأفكار المضطربة مثل سفينة تشق عباب البحر بلا قائد ولا بوصلة ولا حتى حبل نجاة.

احسّت أحلام أني اسرح بعيداً عنها، صاحت بصوتٍ عال :

– ألو .. ألو .. نحن هنا.

– معك .. معك، كنت أتأمل رجع الصدى الطيب الذي تركته في نفس أماني.

– بصراحة أحسدها عليك، أصدقاء اليوم همّهم المصالح، مصالح متنوعة، مادية، جنسية، مصالح بمختلف الأشكال والألوان.

– هل تعدين الجنس من المصالح ؟

– المسألة مختلفة هنا، إذا كان الجنس ناتجاً عن حب فهو حاجة تنعش الروح وتشفي جراحاتها، سيرتبط بالجانب الروحي للإنسان اكثر من كونه حاجة بيولوجية تنفذ بحركات فيزيائية.

– تعجبني أفكارك.

– لكنك لم تجب عن سؤالي السابق.

- أجبت عنه أمام والدك.

- اخشى ان تكون تحت تأثير الخجل أو المجاملة.

- لا، ما قلته التزم به، لكن ينبغي أن تعرفي أن علاقتي مع أمتي تخضع لخطوط حمراء.

- معي لا وجود لأي خط أحمر.

- تقصدين كلها خضراء ؟

- تقريباً.

- امسكتْ يدي وسحبتني إلى مشغلها.

-٣-

في مشغلها، وقفت أحلام تكمل لوحة جديدة، بعد أن ارتدت صدرية بيضاء طويلة، جلستُ قربها أستمتع بموسيقى هادئة.

سألتها ساخراً :

– ما واجبي أنا هنا ؟

ردت وهي تضحك :

– أستلهمْ منك بقية اللوحة.

– ليش آني الآن ديلون ماما ؟

انفجرت ضاحكة وقالت :

– أنت ممتع، ممتع، ممتع.

– لكن بابا أرادني أن أكون صديقاً فقط، لم يقل صديقاً ممتعاً.

– خليك من بابا، إني أضفت شروطاً جديدة، يعني ملحق سري للاتفاقية.

– ما بنود الملحق السري ؟

– ستعرفها على جرعات، أخاف عليك من الصدمة إن كشفتها دفعة واحدة.

– ممكن سؤال شرط أن لا تعدّيه فضولاً أو تطفلاً على حياتك الخاصة ؟

– آه، بكل سرور، أنا ترتبيت على الصراحة والوضوح والثقة بالنفس، إسأل.

ـ لاحظت أن دفترك يخلو من تجارب عاطفية، أيعقل أن فنانة رومانسية مرهفة الاحساس، لم تخض تجربة عاطفية ولم يخفق قلبها للحب في يوم ما ؟

توقفت عن الرسم وأدارت وجهها نحوي، وقالت :

ـ توقعت هذا السؤال، كي تكون إجابتي دقيقة، لابد أن تعرف ظروف نشأتي وتربيتي، أنا الوحيدة لأسرتي، والدتي توفيت بمرض السرطان وأنا مازلت في الثانية عشرة من عمري، بعدها ترك والدي البلد وأخذني معه إلى لندن، غمرني بالحب والحنان والرعاية، أضطلع بدور الأب والأم والأخ والصديق، أراد أن يعوضني حنان أمي ورعايتها، كنا مثل صديقين، تعلقتُ به جداً، لا أخفي عنه شيئاً، ابوح له بكل ما أشعر به أو أواجهه في حياتي. الكثيرون هنا في بغداد أو في لندن، حاولوا التودد لي والتقرب مني، البعض صارحني علناً بإعجابه وحبه، لكني لم أجد صورة أبي في أي منهم، مشكلتي أني أسقط هذه الصورة على أيّ رجل، حين لا أجدها فيه، يسقط من نظري، أبتعد عنه.

أعترف أنها قد تكون نوعاً من عقدة نفسية، لكنه الواقع الذي أعيشه، لذلك لجأت إلى الرسم، لأعبّر من خلال لوحاتي عن مشاعري الدفينة واختلاجات نفسي، من خلالها أتنفس، أبوح، احلم، أشعر بسعادة، أحياناً بألم، أصب كل تلك الأحاسيس في لوحاتي، فأشعر بلذة تشبه اللذة الناجمة عن ممارسة الجنس، الرسم لعبة استمناء داخلي يشتبك فيها الثقافي مع

الاجتماعي مع اللذوي. بعد إنجاز لوحة، أمنحرخي استقرار أعود إلى توازني العقلي والعاطفي، أحس براحة لا توصف، تهدأ روحي، أنعم بهدوء.

حين توقفت عن الكلام، قلت :

- أشكرك على هذه الصراحة، ما قلتيه مهم لرسم صورة لكِ في الرواية تمثلك بصدق.

- ماذا لديك بعد من تساؤلات ؟ أنا أعشق هذا النمط من الحوار.

- ظل سؤالاً واحداً، ما مساحة النرجسية لديك ؟

ابتسمت مجدداً، سأخبرك بعد أن أطلب فنجاني قهوة.

تأملت لوحتها ملياً، لم أجد فيها ملامح تعكس نرجسيتها. عدت بفنجاني القهوة، واستأنفت حديثها بعد أن ارتشفت قهوتها :

- هذه يا صديقي، تهمة، يطلقها بعض الفنانين أو الضارين على الفن التشكيلي، أليس من حق المرء، أياً كان، أن يفخر بمنجزه ثم لماذا توجه هذه التهمة إلى النساء فقط وفي أغلب الأحيان للمشتغلات منهن ؟ بإمكانك أن تسأل دكتورة أماني عن ذلك، هي صديقتي الوحيدة وتوأم روحي، تعرف كل شيء عني، لست نرجسية أبداً، كل ما في الأمر أعشق فني وأعتز بمنجزي، أضع حدوداً لعلاقاتي مع الآخرين، لا أسمح بالتطفل والتجاوز، أضع كل طاقاتي في عملي، لأذوب فيه، فيخرج عملاً رائعاً يجذب المتلقي. لا تنسَ الحسد والغيرة ومحاولة تسقيط الآخر الناجح

والمتميـز، هـذا ديـدن الشـرقيين، يـرون نقصـهم وفشـلهم فـي نجاحـات الآخرين فيحاربونهم.

للأسف، مجتمعنا لا ينصف الفنانة، يتلقف الشائعات ويصدّق الأكاذيب ويبني عليها مواقف مؤذية ومحبِطة.

– أوكي، أشكرك، إلى هنا يكفي، أتعبتك أكثر، مقابل كرمك معي سأكتب ريبورتاجاً صحفياً عن تجربتك الفنية وآراءك التي استمعتُ إليها.

– ساكون ممتنة منك، سيفرح الوالد به كثيراً.

– إذاً دعيني ألتقط لكِ بعض الصور مع لوحاتك.

إلتقطتُ لها لقطات عدة بكاميرا هاتفي، لقطة مع إحدى لوحاتها، وثانية وهي تقف وسط المرسم، وثالثة خلف مكتبها.

قالت والبهجة ترتسم على وجهها :

– ممكن صورة مشتركة تجمعنا معاً ؟

– من يصوّرنا ؟

– سيلفي، لكن بكاميرا هاتفي.

– هل سترسليها لي ؟

– فوراً.

أخرجت هاتفها من الحقيبة، وقفت بجانبي، شعرت بكتفها يلامس كتفي، التقطت أكثر من لقطة.

قلتُ بصوت عال :

ـ صور، صور، صور، تحولت حياتنا إلى سلسلة صور متوالية، إنه عصر الصورة فعلاً، استحوذت الصورة على عقولنا ومشاعرنا حتى أصبحنا أسرى لسطوة الصورة.

عقّبت :

ـ صحيح، لكن ليست كل الصور تبعث السعادة في نفوسنا، هناك صور تذكرنا بالمرارة والألم والفقدان والحسرة.

ـ أرجو أن لا تكون صور اليوم مؤلمة لذاكرتك.

ـ سأسعد بها كما سعدت بلقائك.

ـ بعد أسبوع سأجلب لك المجلة وقد نشر الريبورتاج فيها.

ـ أسبوع ! لن تزرني إلاّ بعد أسبوع ؟ هذا مخالف للملحق السري.

ـ كم زيارة في الأسبوع حدد الملحق ؟

ـ ثلاث إلى أربع.

ـ لا، هذا كثير، اثنتان فقط.

ـ حالياً أوكي.

ـ وفي المستقبل ؟

ـ يومياً.

رافقتني إلى الباب الخارجي، ظلت واقفة إلى أن تحركت السيارة وهي تلوّح لي بيدها.

أحسستُ بشهوانية تجاهها، أجّجتها ملابسها الضيقة التي ابرزت مفاتنها الأنثوية.

سألت آمال عنها بخبث بعد أن غادرت المكتب :

- شنو فلم إقبال ؟

- متفيدك، خل المرأة بحالها.

طلبتُ من إقبال دعوة العاملين إلى اجتماع عاجل في القاعة الكبيرة، استدارت وانصرفت، ظل نظري راكزاً على وركها المستدير المرتفع، اروع ما تمتلكه، وركها وصدرها وبياضها المشعّ على ملابسها السوداء.

في الاجتماع، عرّفت نفسي للعاملين، كانوا يعرفون اسمي فقط، فقد أبلغتهم إقبال بذلك قبل يومين من التحاقي، بدأت كلامي بالحديث عن مكانة المجلة في الوسط الإعلامي، ثم هبوطها وتدهورها مادياً إلى حد يهددها بالإفلاس التام.

طلبت من مدير الحسابات إعادة ما قاله لي أمام العاملين، نهض الرجل وقرأ في ورقة تفاصيل الموقف المالي الحرج للمجلة.

استأنفت كلامي :

أمامنا خياران لا ثالث لهما، أما إغلاق المجلة وما يتبعه من تسريح العاملين وضياع تاريخ من العطاء والإنجاز، وهو خيار سيئ، أو قبول التحدّي، تحدّي أنفسنا، والتفكير بوسائل جديدة توفّر للمجلة موارد مالية تنقذها من الضياع.

ضربتُ كفي على الطاولة مؤكداً :

أنا مع الخيار الثاني، خيار التحدّي، خيار الشجعان الذين لا يعرفون الهزيمة واليأس والاستسلام.

صفق أغلب الحاضرين بقوة، نهضت شابة جميلة، طويلة، بملامح شامية، قالت :

ـ أنا نورس من قسم المقابلات، أستاذ كلنا معك في هذا التحدّي، لن ندع المجلة تتوقف، عيون إنانا، ليست وسيلة رزق نعيش منها، هي ذكرياتنا، بيتنا الثاني، أرجو من حضرتك رسم خطة عمل ونحن تحت إشرافك سننفذها.

أيدها الآخرون في ما ذهبت إليه، قلت :

ـ أشكرك ست نورس، أرجو أن يكون الجميع بحماستك، أول خطوة هي توسيع دائرة اهتمام المجلة، سنهتم بقضايا جميع شرائح المجتمع، نركز على التحقيقات الاستقصائية والموضوعات المنوّعة التي تستقطب القرّاء، حوارات مع المشاهير من الجنسين، نجوم المجتمع في كل الحقول.

رأيتُ الاستحسان بادياً على وجوه العاملين، واصلتُ كلامي :

ـ أريد منكم الانفتاح على المعلنين، فنادق كبيرة، مطاعم درجة أولى، شركات هاتف نقال وصيرفة وسياحة، مصارف أهلية، وما شابه ذلك، كل إعلان يجلبه محرر سيكون ربع ثمنه له. سأتفاوض مع صاحب المطبعة والموزع على جدولة الديون، وسأفتح بتعاونكم دورات

تدريب الراغبين بتعلم فنون الصحافة والتصوير والمونتاج والتصميم مقابل أجور معقولة، هذه الدورات ستقام هنا بمقر المجلة، الدخل من يحاضر فيها، ستوفر لنا سيولة نقدية إضافية لتغطية رواتبكم والمصروفات الأخرى.

طرحوا مقترحات وأفكار سجلتها إقبال، وعدتهم بدراستها وتنفيذ الممكن منها.

انفض الاجتماع، قبل أن أعود لمكتبي، لحقت بي نورس :

- أستاذ أنا معجبة جداً بأفكارك، متفائلة بقيادتك للمجلة، ساكون بخدمتك في أي واجب تكلفني، هذا كارتي الشخصي، اتصل بأي وقت، ساكون سعيدة بالعمل معك.

تتكلم نورس بسرعة، وعيناها تبعث رسائل من نوع آخر، أخذت الكارت، شكرتها ثانية :

- سنكون أصدقاء، أفتخر بك يا أجمل نورس.

قلت ذلك أمام إقبال متعمداً استفزازها، اكتفت بتقطيب حاجبيها.

-٢-

في المكتب، جلست مع إقبال لتدوين الأفكار والمقترحات، تقصدتُ الجلوس إلى جوارها، إلا أنها ظلت حذرة متحفظة، لا تتكلم إلا حين اسألها، قلت :

ـ ست إقبال ممكن سؤال ؟

ـ تفضل أستاذ.

ـ هل أنتِ سعيدة بالعمل معي ؟

ـ أنتَ الآن رئيس تحرير وأنا مديرة مكتبك أنفذ ما تطلبه مني من أعمال، أياً كان المسؤول أنا ملزمة بأداء واجباتي تجاهه.

ـ ساعيد السؤال بصيغة أخرى، هل أنتِ سعيدة معي كما كنتِ مع ست آمال ؟

ـ بصراحة، ست آمال صديقتي قبل أن أعمل معها، العمل زادني حباً وتقديراً لها.

ـ وأنا ؟

ـ ما بك ؟

ـ هل سأكون صديقاً كما كانت آمال ؟

ـ لا أعتقد.

ـ لماذا ؟

ـ لا صداقة بين رجل وامرأة، نحن زملاء عمل فقط.

ـ إذا لم تكن بيننا علاقة خاصة لا يمكن أن ننجح بعملنا.

- ما تقصد بالعلاقة الخاصة ؟

قالتها بنبرة استغراب، دفعتني إلى التراجع.

- أقصد مثل علاقتك مع ست آمال؟

- أستاذ أكملت كتابة المحضر، سأعود لمكتبي، إن احتجتني، اضرب الجرس.

خرجتْ، أنا على يقين من انها فهمت مقاصدي ؟ ما أقوله غير ما أقصده، أقول شيئاً وأقصد غيره.

-٣-

بعد اسبوع من العمل اليومي الدؤوب، والمتابعة المباشرة للمحررين والمصممين ومندوبي الإعلانات، صدر العدد الجديد من عيون إناثا بحُلّة جديدة وإخراج متميز، ثلثا الصفحات للمواد الصحفية والثلث الأخر للإعلانات، أثمان الاعلانات جلبتها نورس وزميلتاها سارة وآلاء، من فنادق الدرجة الأولى وشركات التحويل المالي والاتصالات.

قدرة الفتيات على جلب الإعلانات من رجال الأعمال والشركات التجارية ممتازة جداً، لا بفضل ثـقافتهن، بل لمهاراتهن الأنثوية، ملابس ضيقة، تغنّج بالكلام، ميوعة، مكالمات رقيقة بعد منتصف الليل.

لم يكن هذا يعنيني كثيراً، همّي تركّز على إيقاف انحدار المجلة وإنعاش مواردها، استطعت كسب ثـقة صاحبيّ المطبعة وشركة التوزيع بعد أن سددت لهما قسطاً من مستحقاتهما، ما تبقى من إيرادات الإعلانات الجديدة يؤمن مرتبات العاملين لشهرين، هذا ما أخبرني به مدير الحسابات.

زرت آمال في شقتها مصطحباً عشر نسخ من العدد الجديد، تفاجأت بالزيارة والعدد الجديد على حد سواء، لم تصدق أن هذا ثمرة أسبوع واحد من العمل، فتحت صفحة الغلاف الداخلي لترى اسمها مازال رئيساً للتحرير وأنا نائب للرئيس.

انفعلت، ضربت بكفها على طاولة بغرفة الاستقبال حيث كنا نجلس:

- ما هذا ؟ ألم نتفق أن تكون أنت رئيساً للتحرير وأنا مجرد رئيسةُ مجلس الإدارة، لماذا تفعل هذا ؟ أرجوك غيّر ذلك في العدد المقبل أستاذ سامر.

اجبتها بهدوء متقنعاً بقناع الناكر للذات :

- ست آمال، هذه مجلتك، مشروعكِ أنتِ، وأنا مجرد موظف عندك، كُلفتُ بمسؤولية وعدتك بإنجازها.

احتضنتني، شهقت، ثم بكت.

- اي إيثار لديك سامر! نعم سامر، لا أقول بعد الآن أستاذ سامر، أنت أقرب إنسان مني، لماذا لا يكون الأصدقاء الآخرين مثلك ؟ اسمع، العدد القادم، إن لم يثبت اسمك رئيساً للتحرير، سأزعل بجد.

- هذا غير مهم، حدثيني عن أخبارك، صحتك، وضعك النفسي.

- كما تراني وحيدة، كئيبة، متضايقة، لم يزرني أحد سوى أختي، وها أنت الشخص الثاني الذي أراه منذ أسبوع، أرايت الجفاء ونكران الجميل.

ظلت تتكلم بألم وحسرة ودموعها تنساب على خديها، لأول مرة أشعر بالشفقة عليها، كم أكره هذ الاحساس، بدت عيناها متعبتين، ووجهاً شاحباً مائلاً إلى الاصفرار.

سألتها :

ـ إلى هذه الدرجة أنتِ متعبة ؟

ـ واكثر، لم أعد راغبة بالعمل ولا بالحياة كلها، لا أستطيع أن انام إلا بعد تناول الحبوب المهدئة.

استأذنت لدخول الحمام، بقيتُ وحيداً في الصالة، نهضتُ ألقي نظرة على عناوين كتب صفّت على رفوف مكتبة زجاجية قبالتي، لم أجد من بينها ما يستوهيني، إلا أني صدمت بمجموعة من أشرطة حبوب وضعت على الرف الأسفل، حبوب بمختلف الألوان : وردية، زرقاء، بيضاء، سمائية.

دفعني فضولي لسحب الأشرطة وقراءة أسماءها، لأجدها : آرتين، لريفوتريل، وزاناكس، فاليوم 10، سومادريل.

ما هذا يا إلهي ؟! أصابتني الدهشة والذهول، أعرف جيداً بفضل لغتي الإنكليزية طبيعة هذه العقاقير ودواعي استعمالها : حبوب مخدرة، هل تورطت آمال بتعاطي هذه المخدرات، لا أصدق، إذاً لماذا تحتفظ بها؟

أعدتُ الأشرطة إلى مكانها، عدتُ إلى الجلوس، لا أرغب أن تضبطني أفتش في أدويتها.

استرجعتُ ذاكرتي أحوال آمال خلال الشهر الأخير، كانت سارحة، قليلة التركيز، لم تعد تناقش بخيوية ونشاط كما كانت، أكثر من مرة أجهشت بالبكاء أمامي.

كل التغيّرات رجّحت فرضية تعاطيها لتلك الحبوب اللعينة، حبوب الهلوسة أو الكبسلة كما يطلق عليها محلياً.

لم أجزم، فضّلتُ انتظارها، ساستجوبها بلطف ومودة لأعرف الحقيقة.

فعلاً الحقيقة شائكة، والطريق إليها صعب وملتبس، والنتيجة غير متوقعة، وقد تكون صادمة.

مرت دقائق خرجت بعدها آمال بثوب نوم أزرق فاتح شفاف نوعاً ما، أظهرها المكياج أجمل مما كانت عليه قبل دخولها الحمام لكنه لم يخفِ كآبتها.

وقفت أمامي وتساءلت :

- ها .. الآن كيف تراني، ملكة جمال ؟

نظرت في عينيها، استعرضت جسدها، قلت :

- ما شاء الله، كيكة وعليها شموع.

ابتسمت، أحسّت بارتياح :

- ذوق، أنت ذوق. اليوم نسهر معاً، نشرب نخب عودة صدور المجلة، من فضلك لا أريد اعتذارات ولا مجاملات مزيّـفة.

- آسف لديّ موعد مع صديق.

- لا صديق، ولا أي شيء آخر، أقفلتُ باب الشقة، أنت الآن مختطف، تدفع الفدية حتى تخرج.

- ما هي الفدية سيدتي ؟

- فديتك سهرة حمراء معي حتى الفجر.

- موافق، بشرط أن تكوني صريحة معي، تجيبين بصدق على كل أسئلتي.

- وهل عرفت آمال غير ذلك، أعدك.

في مطبخها الصغير، أعدت عشاءً من البيتزا وبعض المقبلات وعصائر الليمون، جلسنا حول طاولة تتوسط المطبخ، لم اشأ فتح موضوع الحبوب كي لا أعكّر عليها سهرتها بعد تحسن مزاجها.

مع أول لقمة من البيتزا، مازحتها :

- تبدين ربة منزل من النوع الجيد.

- هل تنوي أن تتزوجني ؟

- لِمَ لا ؟

- أتعلم سامر، أنت الوحيد الذي يسعدني بكلامه اللطيف، أتذكر حين كنا نتجادل ونختلف بشأن الرواية، كنتُ أشعر بمتعة الجدال معك، جدال لا غالب فيه ولا مغلوب، كم تمنيت أن أغلبك مرة ؟

- لماذا ؟ ما هذه الروح الانتقامية من الرجال ؟

- لا، والله، ليس هذا قصدي، كنت أخطط للتقرب منك أكثر عبر الاعتذار لك عن نتيجة الجدل.

- طريقة خبيثة وماكرة لاصطياد قلوب الرجال.

استمرت أحاديثنا ودّية، تميل إلى الغزل والرومانسية أحياناً.

بعد العشاء، عدنا إلى الصالة، أدارت مؤشر التلفزيون على قناة تبث الرقص الشرقي، عادت إلى المطبخ لتجلب قنينة ويسكي وضعتها على الطاولة، سكبت منها في قدحين، أحضرتْ فواكه ومكسرات وحلوى وعلبة سگائر. جلست بجانبي، وقالت بسخرية :

- هيت لك !

- ما هذا الذي تفعليه ؟

- اليوم خمرٌ وغداً أمرُ.

- لا، أرجوك، أنا لا أشرب.

- تشربُ رغماً عنك.

- أين حقوق الإنسان إذاً ؟

- طزّ فيها.

تجرعتْ قدحها دفعة واحدة، امسكتْ القدح الآخر وقربته من فمي :

- اشرب حبيبي.

فكرتُ أن أتظاهر بالسكر لأعرف منها حقيقة الحبوب وأكتشف المزيد من أسرارها، ارتشفتُ قليلاً من الشراب، ثم وضعتُ القدح على الطاولة :

- أنا يعجبني الشرب بتروٍ، على مراحل.

ـ اوكي، سارقص لك رقصة تسكرك دون أن تشرب.

بدأت ترقص وتتمايل بجسدها على أنغام الموسيقى، ترقص وتشرب من الويسكي، كنت أتحرّق لمعرفة الحقيقة برغم أن مشاعري قد تبدلت من الإحساس بالشفقة عليها إلى رغبة في عناقها وممارسة الحب معها، لم يسبق لي أن فعلت ذلك مع أنثى ترقص منتشية، كما هو المشهد أمامي الآن.

لم أحتمل، توترت وزاد هياجي، نهضتُ، ما أن نهضت حتى سحبتني من يدي لمشاركتها الرقص، رقصتُ معها، طلبت منها أن تجلس لتستريح قليلاً، أجلستها على الكنبة، كانت مترنحة، قبّلتها في رقبتها، طوقتني بذراعيها، وضعت رأسها فوق كتفي، ظلت تهذي بكلمات، فهمتُ منها عبارة : خذني إلى السرير.

قررت مباغتتها بالسؤال :

– سآخذك، وأعمل لك كل ما تشتهين، لكن قبل ذلك اعترفي، ما حقيقة هذه الحبوب ؟

قبل أن تجيب، أسرعتُ إلى المكتبة لأُريها أشرطة الحبوب.

ارتبكت، تغيّــرت ألوان وجهها، لم تتكلمْ، عدت للجلوس بجانبها.

– اعترفي، هل تتعاطين هذه الحبوب ؟

ظلت صامته، عادت ووضعت رأسها على كتفي، انفجرت بنوبة بكاء حاد :

- نعم.

- هل أصبحتِ مدمنة ؟

- نعم، لا أستطيع النوم بدونها.

- من دلك عليها ؟

- زميلتي المحامية.

- اسمعي آمال، هذه الأشرطة سآخذها معي، وسأصطحبك إلى مستشفى ابن رشد كي تتعالجي من إدمانك.

مدت يدها لتسحب الأشرطة، أزحتُ يدها بقوة، حاولت مرة ثانية، صفعتها على خدها، تركتها وخرجت.

بخضوع تام، جاءت معي إلى مستشفى ابن رشد المتخصص بعلاج حالات الإدمان، تم تحويلها إلى الدكتورة هالة، امرأة خمسينية جميلة ترتدي نظارات طبية أنيقة.

رحبت بنا وطلبت من آمال بيانات عامة : سنها، عملها، تاريخها الصحي، الحالات النفسية التي تعرضت لها سابقاً، حالتها الاجتماعية ومدى استقرارُها العائلي.

صمتت قليلاً وهي تنظر إلينا، ثم قالت :

- تفضلي ست آمال، أريد أن أسمع منك، أنا سعيدة بلقاء امرأة إعلامية وقانونية مثقفة، بوحي بكل ما تعانين، أحبّ أن أسمعكِ قبل الشروع بإجراءات الفحص والتحليل.

نظرت آمال لي وابتسمت :

- العفو دكتورة أنا أخجل، ممكن أستاذ سامر يتحدث عن حالتي، هو يعرف كل شيء عني.

ردت الدكتورة بحزم :

- طبعاً لا، هذا غير ممكن، لا يستطيع أي شخص أن يعبّر عن حالتك مثلما تصفينها أنتِ، لا داعِ للخجل أبداً.

شجعتها على الكلام طالباً منها احترام وقت الطبيبة، بدأت تتكلم بشيء من الاستحياء في البداية، ثم سردت تفاصيل تجربتها مع زوجها

السابق وما آلت إليه من نتائج، ثم عرضت تعلقها بزميلها باسل ومحاولات ابتزازها، توقفت عن الكلام بعد أن ازداد نزيف دمعها.

ناولتها الطبيبة قدح ماء ودعتها إلى أن ترتاح قليلاً، استثمرتُ التوقف لأفتح حواراً مع الطبيبة بشأن الانتشار الواسع لتعاطي الحبوب المخدرة بين الشباب في المقاهي والكافتيريات والنوادي الاجتماعية.

قالت إن هذه الظاهرة تنتشر بمستويات أقل في بعض الأقسام الداخلية للطلبة والطالبات وفي صالونات الحلاقة والتجميل وفي محلات أخرى، وعزت الأسباب إلى الأزمات الاجتماعية والبطالة والتفكك الأسري وتداعيات الأوضاع الأمنية المضطربة والعمليات الارهابية والنزوح والتهجير.

أضفت إلى أسبابها الاستخدام السيء لوسائل الاعلام الجديد كمواقع التواصل الاجتماعي وما تخلّقه من أجواء عزلة تبعد الشباب والشابات عن عيون أسرهم.

أيّدت كلامي وطلبت من آمال استئناف حديثها.

ذكرت: بعد أن أصابني الأرق بحثت عن أي عقار يهديء حالي ويخفف توتري، فنصحتني زميلتي المحامية بتناول حبة أخرجتها من حقيبتها.

كانت تلك الحبة أول خطوة في طريق الإدمان، شعرت بالارتياح والنشوة واستقرار المزاج، تعرّفتُ على أنواع أخرى من تلك الحبوب،لا أستطيع النوم أو التفكير دون أن أتناولها.

ذكرت أسماء الحبوب ومسمياتها الشعبية ومدى مفعولها المخدّر.

طلبت الطبيبة من آمال إجراء تحليلات عدة للدم والبول واختبارات أخرى في المستشفى ذاته، ثم العودة إليها ثانية.

بعد أن أجرينا التحليلات والاختبارات، كان النهار قد انتصف، اقترحت آمال أن نغادر ونعود صباح الغد، نظرتُ إليها نظرة غضب، فتراجعت.

بعد انتظار لنصف ساعة قابلتنا الطبيبة بابتسامة مصنوعة، قرأتْ التقارير، قالت :

– الحمد لله، حالة ست آمال ليست خطيرة، لم تمض مدة طويلة على تورطها، علاجها ممكن إذا امتلكت الإرادة القوية، وأنا اعتقد أنها تملكها وتعي خطورة هذه الحبوب. يا عزيزتي آمال الحلوة، أقول لكِ كلمة بعد أن استمعت إلى معاناتك، ينبغي أن تتجاوزي ماضيكِ، إذا استغرقنا الخوف من الماضي كل الوقت فلن يتاح لنا النضوج والارتقاء باتجاه المستقبل، سنرى أنفسنا ندور في دوائر تكرارية عديمة المعنى والهدف. لذا أرى أن ما تحتاجين إليه هو خلطة من ذاكرة ونسيان.

سألتها آمال :

– دكتورة، هل ممكن أن أواصل حياتي دون رجل ؟

نظرت الطبيبة لي مبتسمة وأجابت :

- غياب الرجل عن حياة المرأة قد يجعل منها إلى حد ما مستقلّة، ويوفر لها فرصة عمل أشياء لم يكن بوسعها الإتيان بها لو قيضّ لها العيش تحت سطوة سلطة ذكورية، ينبغي أن تعلمي أن النساء يبدين جَلَداً عظيماً في مجابهة الصعاب والأخطار، وتلك إحدى المميزات الفارقة التي تسم النساء.

عاودت آمال طرح أسئلتها :

- لماذا أنا بالذات أعاني هكذا، أعرف زميلات أقل مني جمالاً وقدرة وموهبة إلا أنهن ناجحات بحياتهن العاطفية والأسرية.

ردت عليها الطبيبة :

- ابتعدي عن المقارنات كلياً، من الصعب أن نقارن أنفسنا بآخرين، فكل منّا له سماته الشخصية المختلفة.

آخر ما قالته الطبيبة كان أشبه بوصية لآمال :

- ست آمال كل واحد منّـا قد يشعر برغبة في يوم ما للاستسلام، أنا شخصياً شعرتُ بذلك، يصعب عليّ الحديث عن تجربة كهذه، من العسير نقل أحاسيسنا للآخرين في تلك الحالات، عندما يتكلم الإنسان بطريقة استرجاعية عن حادثة ما يبدو أنه يدير دفة الأمور جيداً، ولكنه في خضم الحادثة يبدو الأمر مختلفاً تماماً، إذ ليس ثمة من قدرة على التحكم بالأمر. كل ما عليكِ أن تعيشي يومك وحسب، قد يحصل بالطبع أن تحزني أحياناً، لكن دعيني أقول : لا تبحثي عن وسائل

لجعل الأمور السيئة تبدو ممتعة، بل عيشي اللحظات السيئة وتجاوزيها وامضِ.

كتبت الدكتورة لأمال بعض الأدوية وطلبت منها المراجعة بعد أسبوع، سألتها عن المدة المفترضة للشفاء، أجابت :

– هذا يعتمد على رغبتها وإرادتها والتزامها ببرنامج العلاج، أتوقع شفاءها خلال ستة أشهر.

بعد أن خرجنا من غرفة الدكتورة، امسكت أمال يدي، وقالت :

– أريد منك كلمة رجل، أن تظل بقربي، تساندني، وتزرع أمل الشفاء في نفسي.

– أعدك بذلك، لن أتخلى عنك، هذا موقف أخلاقي وإنساني لن أحيد عنه.

- ٥ -

ازداد تدفق الإعلانات بفعل العمولة التي خصصتها للذين يجلبون تلك الإعلانات، انتعش الوضع المالي للمجلة، تم الإيفاء بمستحقات الدائنين، منحت العاملين مكافأة تشجيعاً لهم. استطعت كسب ود معظم الزملاء والزميلات عبر أسلوب التعامل المباشر معهم بعيداً عن البيروقراطية.

الوحيدة التي ظلت متحفظة بعلاقتها معي، إقبال، برغم أنها الأقرب مني بحكم إدارتها لمكتبي. لم أفلح بأي تقارب معها، قدمت لها العديد من الإغراءات المادية كزيادة راتبها ومنحها مخصصات إضافية. أردت اختراقها من خلال نقطة ضعفها، ظرفها المادي الصعب، فهي تعيل نفسها وطفلتها، وتعاني من بدل إيجار شقتها الباهض.

كانت تتعامل معي بمنتهى الحذر والذكاء، لا تسمح بأي تصرف مهما كان صغيراً يسيء لها، في الوقت ذاته تؤدي واجباتها الوظيفية بإتقان، دون تقصير أو ثغرة خشية أن أستغلّها ضدها.

استبدلت ملابسها الضيقة بأخرى فضفاضة واسعة، وارتدت حجاباً كاملاً، في محاولة دفاعية لإبعاد أنظاري عن مفاتنها، إلا أن ذلك لم يزدني إلاّ عناداً.

تواصلت محاولاتي واستمر صدّها، إلى أن وصلت الأمور إلى درجة الانفجار حين وضعت يدي على كتفها، أنزلتها بغضب.

– أستاذ، أرجوك، إلى هنا يكفي، ماذا تريد مني بالضبط ؟

ببرود أجبتها :

– معجب بك.

– أستاذ أنت رئيس تحرير، ورجل محترم، لا تليق بك هذه الحركات.

– لماذا تقابلينني بقسوة تتجاهلين مشاعري ؟

– ليست مشاعر، رغبات تنتقل مني كوني أرملة، لماذا تضعون المرأة أمام خيارات صعبة ؟

– كيف تحكمين وأنت لم تجرِ أي حوار معي بهذا الخصوص ؟

– لا أحتاج إلى حوار، كل شيء واضح.

– لكني معجب جداً بأنوثتك.

– إن كنت صادقاً في ما تقول، أثبت ذلك بالطريقة الشرعية التي تصون كرامتي

– تقصدين الزواج ؟

– نعم، إذا تقدمت لخطبتي، سأفكر جدياً بالموضوع.

– موافق، شرط أن يكون زواج متعة، ما رأيك ؟

– ماذا ! زواج متعة ! أيعقل أن يتكلم رجل مثلك بهذه الطريقة ؟

– آسف.

– أستاذ، سأعتبر نفسي وكأني لم أسمع منك شيئاً، أرجو أن تقتصر علاقتنا على العمل فقط أنا بحاجة إلى وظيفتي، أرجوك لا تضطرني إلى تركها، حين أجد كرامتي مهددة، سأضحي بالوظيفة من أجل حفظ كرامتي.

– أوكي، اتفقنا، أعتذر منكِ ثانية.

دلع أنثوي

بعد أيام من لقاء المرسم، جاءتني أماني بطلّتها البهية مرتدية فستاناً زاهي الالوان زادها جمالاً وفتنة.

سألتني عن أخباري مع أحلام ؟ أجبتها بسؤال :

– تسألين وكأنك لا تعلمي بما دار بيننا ؟

ابتسمت ابتسامتها الرائعة وردت بدلع أنثوي :

– يعجبني أسمع منك.

– كان لقاء عمل، سأكتب عن تجربتها الفنية.

– رائع، ارجو أن تهتم بها، أحلام صديقة عمري، هي طيبة وإن كانت حساسة، حاول أن تفهمها وتقف إلى جانبها، كما فعلت معي.

– طلباتك أوامر سيدتي الجميلة.

– ما انطباعك عنها ؟

– تفاجأت، انطباعاتي السابقة كانت غير دقيقة، وجدتها إنسانة طبيعية، واعية، جديرة بصداقتك، اما والدها فرجل متحرر يحبّ ابنته ويتفهم طبيعة عملها وموهبتها، يثق بها كثيراً.

– هذا ما أردت قوله لك، فعلاً أستاذ سعيد رجل طيب وحنون، أعدّه بمثابة والدي.

أقلقني سر التطابق بين مواقف أحلام ووالدها وأماني، كلهم اتفقوا على دفعي صوب صداقة أحلام ! أهي خطة رسمت سلفاً ؟ ما الذي يمكن أن أقدمه لأحلام ؟ كيف أعاملها مثل التي أعشقها كأني أعيش مراهقتي الثانية معها ؟

مستحيل هذا الذي تطلبـــوه، هل تدرك أماني أن كل ما أقدمه لها هو جواز مرور إلى قلبها ؟ هل انطلت عليها اللعبة ؟ لعبة التشجيـــع على الكتابــــة وإيهامها أنها ستكون نجمة إعلامية ؟ أهي غبيّة إلى هذه الدرجة ؟ هل صحيح ان الجميلات غبيّـات ؟ وما حاجتهن إلى الذكاء ؟ الجمال والسحر والأنوثة تعوّض عن الذكاء وعن كل شيء.

أتعلم أماني، أني حين أراها يكاد عقلي يقفز من رأسي وأدخل في غيبوبة ؟ ألم تسمع بأغنية داخل حسن وهو يردد :

لساني إنعقد واعضاي

ترتعش كلها

ألم تسمع أنوار عبدالوهاب وهي تصدح بصوتها الاوبرالي :

آني من أشوف هواي مقبل عليّ

حيلي يكع للكاع وتموت إيديّه

أي تشجيع وأية ثقافة ! لن أكتب لا رواية ولا حتى قصيدة شعر شعبي، حبيبتي، هذه كلها أقنعة ولعبة خداع وإيهام، نحن لا نفكر بعقل ومنطق، نحن شرقيون للنخاع، مازالت المرأة الجميلة تسلب عقولنا وقلوبنا وتحيلنا إلى جثث هامدة لا حراك فيها.

المسألة باختصار، هي أني اخترت وسيلة تليق بك لأصل إلى قلبك، طريقة غير تقليدية ولا مستهلكة، هذا هو الحب يحفّز المحب على الإبداع والخلق، بل حتى على الذل إن تطلّب الأمر.

أنا بمنتهى السعادة ؛ لأن لعبتي قد أعجبتك، وابتعلت طعم الصياد، استمرأتيها وتفاعلت معها، فجاءت النتائج غير متوقعة، قبضت الثمن، لم يكن الثمن باهضاً أو مكلفاً لك، ابتسامة ساحرة، كلام رقيق ينعش روحي المتيبسة مثل خشب عتيق.

هذا ما أريده، ليس كثيراً.

أتعلمين أن غاية طموحي كانت أن تردّي تحيتي، نعم هذا ما كنتُ أطمح إليه حين رأيتك للمرة الأولى، أما أن تدخلي مكتبي مبتسمة، وتكلميني بدلعــك الأنثوي، فهذا كفتح القسطنطينية !

وسيلتي للوصول إليكِ، كانت راقية وشريفة، لا كما يقول ميكافيللي، الغاية تبررّ الوسيلة.

لم يعد لديّ ما أقدمه لصديقتك، إنني أعطيت لم أستبقِ شيئاً.

على أي حال، لندع الأمور تسير كما تشاء، بل كما تشائين أنتِ يا ملاكي الجميل.

ريبورتاج صحفي

" أنامل أحلام تنقل أحلام الناس إلى واقع افتراضي "

هذا هو العنوان الذي وضعته للمادة الصحفية التي كتبتها عن تجربة أحلام الفنية، أحتل الموضوع مع صوره الصفحتين الوسطيتين من المجلة، أخترت صورتها وهي تقف بجانب لوحتها لتكون على صفحة الغلاف الأول.

جئت لمنزلها دون موعد لأفاجأها، وضعتُ المجلة تحت قميصي.

حين دخلت المنزل لم ترَ بيدي شيئاً، قلت لها :

- أغمضي عينيك ومدّي يديك للأمام، سأعطيك مفاجأة.

فعلت ما طلبته وهي تبتسم، بسرعة أخرجتُ المجلة من تحت قميصي، وضعتها بيدها.

افتحي عينيك الآن.

حين رأت صورتها على غلاف المجلة، أطلقت صيحة قوية لا شعورياً ثم قفزت لتحتضنني بقوة واضعة ذراعيها على أعلى ظهري، شعرت بنهديها يلتصقان بصدري وبطنها على بطني.

فاجأتني حركتها المباغتة والسريعة مثلما أغرتني، فضغطت على خصرها بيديّ، لم تتراجع، ظلت تردد بفرح طفولي : أشكرك، أشكرك، أشكرك.

أنزلتْ يديها ودفعتها قليلاً، قلت :

– هذه هديتك يا مبدعة.

– أجمل هدية من أروع صديق.

حين دخلنا صالة الضيوف، بادرت إلى الاتصال بوالدها :

– بابا، مفاجأة حلوة تنتظرك أستاذ سامر عندي ومعه المجلة، صورتي على غلافها.

سمعته يرد بعد أن فتحت سماعة الهاتف :

– لا تدعيه يغادر، سنتغدى معاً، سأتصل بمطعم صمد واحجز وجبة غداء.

ردت بصوت ما زال تحت صدمة المفاجأة :

– بابا أنت كلّمه أرجوك.

نهضت واضعة الهاتف قرب أذني، سمعته يقول :

– أستاذ سامر، أنا ممتن منك، أرجوك لا تغادر المنزل، بعد ساعة واحدة فقط سأكون عندكم ومعي وجبة غداء شهية، أرجوك لا تفسد فرحتنا.

– أوكي أستاذ سعيد، سأبقى.

لم تفتح أحلام المجلة لتقرأ ما كتب علها، اكتفت بقراءة العنوان ورؤية الصور، فتحت الحاسوب، لتنطلق أغنية فيروز :

شـــايف الســـما شـــو بعيـــده

بعـــــد الســـــما بحبـــــك

شـــايف البحـــر شـــو كبيـــر

بكبـــــر البحـــــر بحبـــــك

بكبـــر البحـــر وبعـــد الســـما

بحبـــك يـــا حبيبـــي بحبـــك

قامت ترقص وهي تردد كلمات الأغنية، رقصت بملابس نومها :

– هذا أحلى صباح بحياتي، وأنت أروع صديق وهبني إياه الله.

– تستحقين ذلك، ها أنا أعاملك مثل أماني بالفعل لا بالقول.

– أعرف، أعرف، هيا إلى المطبخ لنفطر معاً.

على مائدة الإفطار، ظلت تكيل عبارات الثناء، ثم سألتني :

– كم نسخة جبت لي ؟

– ثلاث.

– كم ؟ أريد عشر نسخ، لا عشرة قليلة، مية، سأشتري كل النسخ من المكتبات.

– ماذا تعملين بها ؟

- ساوزعها على الزملاء والأصدقاء والأعداء، هل تعلم أماني بالموضوع ؟

- لا، أنت أول من اطّلع على المجلة، قبل ساعتين فقط انتهى طبعها.

- ساخبرها حالاً.

- أخشى أن تزعل منّي.

- لماذا ؟

- لأنها تحبّني وتغار عليّ.

ضحكت ساخرة وضربتني برفق على خدّي :

- أنت حالم، حالم كبير.

- لماذا ؟

- أماني لا تحبّـك، تعدك مجرد زميل، وفي أفضل الأحوال صديق.

- كيف عرفتِ ؟ هل قالت ذلك لكِ صراحة ؟

- نعم، ولأكثر من مرة، دائماً تقول أستاذ سامر زميل محترم أو صديق راقٍ.

- فقط ؟

- ماذا تريد غير ذلك ؟

- ألم تقل أنها معجبة، أو مغرمة بي ؟

- لا، أبداً.

توقفت عن تناول الفطور، أحست بي، سألتني :

- ما بك ؟ هل انقهرت ؟ أم صدمت.

ـ لا.

ـ لا تكابر، أنت تحبّها، لكن ما فائدة الحب من طرف واحد ؟ مجرد عذاب، ومعاناة وانتظار لا طائل منه.

اخبرتها أني مضطر للمغادرة الان ؛ لارتباطي بعمل في الجامعة وساعود وقت الغداء، ردّت :

ـ آسفة إن عكّرت مزاجك.

ـ لا، أبداً.

خرجت، ولم أعد طبعاً، فعلاً تعكّر مزاجي بعد الذي سمعته، وإن لم يكن عن لسان أماني مباشرة، لكنه أقرب إلى الحقيقة، فهي لا تخفي شيئاً عن صديقتها، ثم هل تجرؤ أحلام على نقل أكاذيب عن لسان أماني ؟ لا اظن.

اغلقتُ هاتفي تجنباً للإحراج، وعدت إلى البيت حزيناً مهزوماً بعد أن تبخّرت أحلامي وانهارت قصور الرمال التي شيدتها في خيالي.

متى تقبّل يدي

-١-

مساءً فتحت هاتفي لأجد العديد من المكالمات التي لم يردْ عليها، من احلام، والدها، إقبال، آمال، إلا أن المكالمة التي تأسفت على ضياعها كانت من أماني.

قليلاً إن لم أقل نادراً ما تتصل بي، وإن اتصلت فمعنى ذلك أن الموضوع مهم بالنسبة لها. لم أشأ إزعاجها بمكالمة، فضّلت إرسال رسالة نصية لها :

" مساء الياسمين، أعتذر جداً، إن كنتِ بحاجة لي سأتصل بك الآن .. تحياتي .. ".

على الفور وصلني ردها :

" مساء النرجس أنا من يعتذر عن الإزعاج، اتمنى أن أراك غداً في الجامعة إذا لم يكن لديك التزام .. أرق تحياتي ..".

أسعدتني رسالتها الجديدة كأنها أزالت كآبة الصباح التي تسببت بها احلام، أجبتها :

" ادلّلي سأكون عندك صباحاً يا غالية ".

لم أجد من بين المكالمات الأخرى ما يستحق الرد عليه.

-٢-

أعدتُ قراءة رسالة أماني ثانية وثالثة، أشعر براحة حين أتعامل مع اي شيء من طرفها: رسالة، مقال، ملاحظة، كتاب كانت قد قرأته وأعارتني إياه، مازلت أحتفظ بمسودات مقالاتها المنشورة، أتلمسها وأقبلها أحياناً، لم أمسح جميع رسائلها من ذاكرة هاتفي.

لا أستطيع تشخيص سر هذا التعلق المتأخر بها، أتألم جداً على عدم معرفتي بها حين كنت طالباً في مرحلة الماجستير، أو في السنوات السابقة أو اللاحقة، أتأخرت عليها أم هي من تأخر؟ لا أعرف.

في الصباح، كنت في قسمها، بعد أن لمحتني خرجت من غرفة الأساتذة، قالت :

– انتظرني في كافيتيريا الأساتذة، سألحق بك.

بسرعة هبطت السلالم، اخترت طاولة بعيدة عن الجالسين، أحضرت قدحين من الكابتشينو وقطعتين من نستلة الكاكاو، ظل قلبي يخفق بسرعة، وترقبي يتصاعد مع كل لحظة، لم أتعب نفسي بتخمين ما تريد، لأترك الأمور على سجيتها، ما يقع من السماء تتلقفه الأرض.

ما أن دخلت الكافتيريا حتى لوحت لها لتراني، جلست قبالتي، امسكت قدح الكابتشينو:

– الله، احب الكابتشينو، تذكرني بأيام الدراسة في فرنسا.

– أنا أعرف كل ما تحبين وكل ما لا تحبين.

- شنو هذه فراسة لو ذكاء لو تشتغل فتّاح فال بعد الدوام ؟

- يمكن.

- اردتُ أولاً أن اسالك عن الرواية، أين وصلت بها ؟

- أية رواية ؟ تقصدين البؤساء ؟

- البائسات، المثـقفات البائسات.

- لماذا بائساتٍ ؟

- مرتين، كونهن نساء مرّة، ومثـقفات مرّة ثانية.

تناولت النستلة وارتشفت من الكابتشينو، مازالت الابتسامة مرتسمة على وجهها الملائكي، استأنفت كلامها بجدية.

- أخبرني، أرجوك أين وصلت الرواية، متلهفة لقراءتها ؟

- أكملتها تقريباً ماعدا مشكلة واحدة.

- ما هي ؟ قد أساعدك في حلها.

- إحدى البطلات، قصدي إحدى المثـقفات الثلاث لازالت تحيّرني، مواقفها غامضة، لم تحسم أمرها.

- أنت احسمه، ألست الكاتب ؟ الكاتب هو من يتحكم بمصير شخصياته.

- لا اريد أن أفرض نفسي عليها، أريد إشارة واضحة منها لأبدأ المعركة.

- أية مغركة ؟

- معركة الحب.

- أيحب الكاتب تلك الشخصية ؟

- بجنون.

- لماذا إذاً يتردد عن اعلان حبه ؟

- يخشى أن ترفضه.

- وإذا رفضته ؟

- ستكون نهاية العالم.

- معقولة ! ألهذه الدرجة يحبها ؟

- طبعاً.

- حرام عليها، يعشقها بجنون وهي لا تعلم ولا تحس بحبه !

- أعتقد أنها تحس لكنها تتغابى، تريد أن تعذبه أكثر.

- لابد أن تحسم هذه الإشكالية، التردد غير مجدٍ.

- من يحسمها ؟

- أنتَ.

- أنا أم أنتِ ؟

ابتسمت وطلبت مني جلب قدحي شاي :

- من فضلك هات لنا قدحي شاي، صدعت راسي هذه الشخصية العنيدة.

- إذا شربت الشاي، هل ستقنعيها ؟

ـ أحاول، إن شاء الله سأقنعها.

وضعت قدح الشاي أمامها :

ـ تفضلي الشاي يا عنيدة.

ـ لستُ أنا العنيدة، شخصيتك الروائية هي العنيدة.

ـ لا فرق، هما شخصية واحدة.

ـ مخاتل، تعرف كيف تسحب الآخر إلى كرسي الاعتراف.

ـ إذاً، ستعترفين ؟

ـ الآن ؟

ـ طبعاً.

ـ بماذا أعترف ؟ لم أرتكب جريمة.

ـ أنا من ارتكبتِ هذه الجريمة.

ـ ما جريمتك ؟

ـ تورطتُ بحبك.

ـ هل تعدّ الحب ورطة ؟

ـ حبك مسؤولية ثقيلة.

ـ اسمعني، لنترك حوار الألغاز والرموز، لندخل في المفيد، لستُ متعالية، ولا مغرورة، ولم أكن غبية ولا متغابية، أحسستُ بمشاعرك منذ الأيام الأولى لتعارفنا، لا أنكر إعجابي بك، أنت الوحيد من أطمأن له وأثق به، أنت تعلم جيداً مدى تحفظي وعدم اختلاطي بالآخرين، لا

أصدقاء لدي سوى أحلام وأنت، طوال المدة التي مضت كنتَ أنت ومشاعري تحت اختبارات.

قاطعتها، لم أعد أحتمل الصبر :

– ما نتيجة الاختبارات ؟

– أنتَ ناجح بامتياز.

– وأنتِ ؟

– نجحت في الدور الثالث.

– الحمد لله، المهم نجح كلانا، أرجوكِ، لا تتكلمي، اصمتي، دعيني أفرح، أعيش نشوة هذه اللحظة التي انتظرتها طويلاً.

– ماذا تتمنى الآن ؟

– بصراحة، أتمنى أن أقبـل يدك، ثمّ أنام نوماً عميقاً، لا أريد أن أكلم أحداً، سيكون نومي هادئاً بعد أن تلاشي القلق والأرق والهواجس والكوابيس.

– هل كنت تتوقع أن لا أبادلك الحب ؟

– لن أجيبك، لن أتكلم، أكملي شرب الشاي لنفترق.

– أنا سعيدة لسعادتك.

– آخر كلمة أقولها قبل أن أتركك : كل ما قدمته وأقدمه لك لا يعادل قطرة في بحر مما قلتيه اليوم، إلى لقاء حبيبتي.

ـ متى تقبّـل يدي ؟

ـ غداً وكل يوم.

قبل ان نفترق سلمتني ورقة قالت انها هدية لي، طلبت مني ان اقرأها في البيت. لم احتمل الانتظار، قرأتها بعد لحظات من افتراقنا، قصيدة رومانسية جميلة بعنوان رجل من عسل انت.

رجل من عسل أنت*

تـــــومئ لوحـــــدتي أن اتبعينـــــي
رجـــل مـــن عســـل أنـــت
كيف لي. وأنا النحلة، التوقف عن
الــــدوران مـــن حولـــك ؟

....

تـــــومئ لروحـــــي بالحـــــب
رجـــل مـــن عســـل أنـــت
كيـف لـــي. وأنـــا الغارقـة بالحرمـان
التوقـــف عـــن الجـــري وراء
ظلّـــــــك ؟

....

تـــــومئ لشـــــفتيّ بقبلـــــة
رجـــل مـــن عســـل أنـــت
كيـف لـــي. وأنـــا الحالمـة بجنـاحين
التوقـــف عـــن الرحيـــل إلـــى
حيـــث تزقـــزق العصــــافير؟

* القصيدة للشاعرة بلقيس حميد حسن من مجموعة أجمل المخلوقات رجل 2013.

غداء عمل

-١-

بعد اللقاء المثير مع أماني في كافتيريا الأساتذة اكتسبت روحي طاقة كبيرة وازدادت همة وحيوية وعزماً على إكمال الرواية.

أماني هي من وضعت نهاية الرواية بكلماتها قليلة العدد ساحقة التأثير، نهاية تكفلت بحلول لعقد الرواية وعقد نسائها على حد سواء، لا غرابة في ذلك، " فالنساء مثل الروايات يبحثن عن حلول لعقدهن ".

دعوتهن للحضور إلى مطعم بيّارة الشام، غداء عمل اطلعهن خلاله اطلاعهن على مسودة النسخة النهائية للرواية، استقبلن الخبر بسرور ولهفة. سألتني آمال وأنا أبلغها الدعوة :

– كيف كانت نهايتي ؟

أجبتها بسخرية :

– في الرواية أم في الواقع ؟

– في الحالتين ؟

– نهاية سعيدة مثل نهاية الأفلام المصرية.

ضحكت من أعماقها وقالت :

– لا أحتمل الانتظار إلى ظهر الغد، أريد إيجازاً لنهايتي الآن، أرجوك.

– ممكن، لكن أريد ثمناً لقاء ذلك.

– حاضر، أطلب، طلباتك مستجابة.

– وعد منك أن لا تفكّري بالعودة إلى الكحول والحبوب المخدرة.

- وعدتك سابقاً، وأعدك الآن، لن أعود إليها مطلقاً، أنا الآن إنسانة أخرى، ولدتُ من جديد على يديك، لولاك لضعت وانتهت حياتي، أحبّ أن أفاجاك بخبر سعيد، هل أنت مستعد لسماعه ؟

- الأخبار السعيدة لا تحتاج إلى استعداد مسبق سيدتي.

- اسمع الخبر: أمس عملت تنازلاً قانونياً عن نصف حصتي في ملكية مؤسسة عيون إنانا وسجلته باسمك يا صديقي، أريد شراكة عمل أبدية معك، شراكة عمل لا تقل أهمية عن شراكة الصداقة.

- أشكرك يا وفيّة، فاجأتيني فعلاً بخطوتك هذه.

- أبداً، أنت من أعاد المجلة للحياة مثلما أعدتني إليها، لولاك لضاع كل شيء.

- سأظل صديقاً وفياً لكِ، غداً ستعرفين نهايتك الرائعة في الرواية.

أحلام هي الوحيدة التي تحفظت على دعوة الغداء، اشترطت لقاءً منفرداً معها قبل ذلك، سألتها:

- ما ضرورة هذا اللقاء ؟

ردت بلهجة حازمة :

- ضروري جداً، لديّ كلام أريد أن تسمعه، لن أحضر دعوتك إن لم نلتقِ قبلها.

وضعتني في موقف محرج، فعدم حضورها يفسّر على أنه اعتراض، وأول من سيتضامن معها أماني صديقة عمرها، سيتعقّد الوضع، ولن تنتهي الرواية حسب السيناريو الذي انتهت إليه. اضطررت لمجاراتها وتنفيذ رغبتها على الرغم مني. سألتها وكأنني غير متلهف للقائها :

ـ أين نلتقي ؟

ـ سؤالك غرِيب ! كما كنا نلتقي، في المرسم طبعاً.

ـ ممكن اقترح مكاناً آخر؟

ـ لا، لن ألتقيك إلا في مرسمي.

ـ أوكي بشرط أن لا يطول اللقاء لأكثر من نصف ساعة، لديّ التزامات كثيرة.

ـ لن أقبل أية شروط، أنا من يحدد طول اللقاء لا أنت.

ـ هل عدتِ إلى نرجسيتك ثانية ؟

ـ قلت ما أريد قوله، مع السلامة.

هكذا كلمتني بنبرة يمتزج فيها الأمر بالاستياء والزعل، لم تخاطبني بهذه اللغة سابقاً، لماذا تغيرت ؟ هل أخبرتها أماني بما جرى في لقاء كافتيريا الأساتذة ؟ من المؤكد أن ذلك قد حصل، أماني لا تخفي عنها شيئاً.

خمّنت أنها وجدت نفسها في موقف صعب، بعد ما تناقض ما نقلته لي عن لسان أماني مع ما حصل في لقاء كافتيريا الأساتذة.

وليكن ذلك صحيحاً، ما المشكلة ؟ مشاعر البشر وعواطفهم تتغير باستمرار، ليست ثابتة مثل الآراء والأفكار.

حين وصلت منزلها، لم أجدها عند البوابة الخارجية تنتظرني كالمعتاد، اتّصلت بها لم ترد، قرعت جرس المنزل، فتحت لي الباب امرأة كبيرة قدمت نفسها لي بالقول :

- أنا أم سرمد، مدبّرة بيت الدكتور سعيد، تفضل ست أحلام تنتظرك في المرسم.

دخلت المرسم متوقعاً استقبالاً مستفزّاً أو غاضباً منها، لغتها خلال المكالمة الأخيرة تشي بذلك، إلا أن ما رأيته كان أسوأ.

كانت تضع رأسها على مكتبها، سلمت، لم تردّ السلام، ناديت باسمها مرات عدة بلا جدوى، امسكتُ رأسها بيدي لأرفعه عن المكتب لأصطدم بعينيها وقد تحولتا إلى قطعتين حمراوين ودموعها تسيل بغزارة على خديها.

- ما بك ست أحلام ؟ ماذا حصل ؟

- أنت السبب.

قالتها بنبرة ضعف وصوتها يكاد أن يختنق.

- لا .. لا أريدك بهذا المنظر، هيا انهضي واغسلي وجهك، اليوم سأتغدى معك.

ما أن سمعت كلامي حتى نهضت واتجهت إلى المنزل لتعود بعد دقائق بمظهر افضل نسبياً مما كانت عليه.

جاءت تحمل فنجاني قهوة، وضعتهما على طاولة أمامي، جلست إلى جانبي، مازالت صامتة، لابد أن أتكلم لأقطع الصمت.

ارتشفت ثلاث رشفات من قهوتي قبل أن أتكلم، كنتُ خلالها افكر بالعبارة - المفتاح الذي أفتتح به الحديث معها، لم تعد العبارات التقليدية ذات فائدة في هذا الجو المتعكر.

بدأت كلامي بالقول :

- اشكد حلوة وانت تبكين تشبهين الموناليزا.

ابتسمت ابتسامة خفيفة دون أن تنظر لي، عاودت كلامي :

- من أزعج الحلو ؟ اليوم أشعل جده السابع عشر.

ازدادت إبتسامتها، ارتشفتْ قهوتها، بقيت صامتاً، قلت بصوتٍ عال :

- يا الله .. يمكن راح تتكلم الموناليزا، أكيد هذا الصمت الذي يسبق العاصفة، أخشى أن تكون العاصفة قوية فتحرق الأخضر واليابس.

وضعت يدي فوق رأسها، قلت ضاحكاً :

- تكلمي حتى أسجّل أبوية باسمك.

لم تعد تتحمل، ضحكت، فزغردتْ سخرية، نطقتْ :

- أريدك ان تسمع أغنية قديمة لفؤاد سالم.

- هل تحفظين كلماتها ؟

- مطلعها فقط.

- ماذا يقول ؟

- انت بديت العشك، وانت بديت الهجر.

فهمت قصدها، علقت بسرعة :

- لكني لم أبدأ الهجر.

- ماذا تسمّي تصرفاتك الأخيرة إذاً ؟

- ست أحلام، عرفتك صريحة وجريئة، ما الذي أغضبك بالضبط ؟

- انحيازك الواضح إلى جانب أماني وتفضيلها عليّ.

- هل تغارين منها ؟

- لا، أبداً، هي ليست أجمل مني حتى أغار منها، لكنك لم تكن منصفاً، ففي الوقت الذي كانت تعاملك كزميل، مجرد زميل، أنا احتضنتك وفتحت أمامك أبواب منزلي، تدخل متى تشاء كأنك أحد أفراد أسرتي، حتى الوالد أحبك، هكذا تردّ على مواقفي : جفاء، برود، شبه انقطاع عن زيارتي.

- لكنك تعرفين عمق علاقتي بأماني قبل أن أتعرف عليك.

- أي عمق هذا ؟ ثم أن تاريخ العلاقة لا يعدّ مؤشراً على عمقها.

- ما الحل الآن ؟

- ليكن معلوماً لديك ولديها أيضاً، أني لا يمكن أن أتنازل عن حقي بسهولة، وإن خسرت معركة فلن أخسر الحرب، اقل ما يمكن أن أقبل به أن تعاملنا نحن الاثنتين على قدم المساواة في كل الحقوق والامتيازات.

ـ وهل ستقبل أماني ذلك ؟

ـ لا يهمّني إن قبلت أو لا، أنتَ من يهمّني.

ـ ما رأيك أن تظل علاقتنا سرّية ؟

ـ مستحيل هذا، أريد أن أفتخر بك أمام الناس.

ـ بحال تطورت علاقتي بأماني إلى درجة الارتبـــاط الرسمي، كيف يكون الموقف عندئذٍ ؟

ـ سأمنع هذا الارتباط بأي طريقة مشروعة أو غير مشروعة.

استمرت مناوراتي معها، أردتُ أن يمر غداء العمل على خير، دون أية مشاكل تحبط مشروع الرواية الذي اكتمل ولم يبقَ منه سوى قراءتهن للمسودة النهائية.

توصلت معها إلى حل وسط يقوم على استمرار علاقتي بها على ما هي عليه الآن مع ضمانة منها بعدم تشنّج علاقتها بأماني.

وافقت إثر هذا الحل على حضور الغداء والمساهمة في مناقشة الرواية بصيغتها النهائية.

-٢-

اصطحبت آمال معي بسيارتي لأجد أماني وأحلام قد سبقتانا إلى مطعم بيّارة الشام، تجمعنا حول طاولة كبيرة قريبة من ضفاف نهر دجلة.

اتفقت مع عامل الخدمة على تأخير وجبة السمك المسگوف إلى أكثر من ساعة كي أوفر الوقت الكافي لهن لقراءة مسودة الرواية.

بدأت الجلسة بمشاكسة من أماني التي غيّرت مكانها لتنتقل إلى جانبي في حركة مقصودة خفت أن تستفزّ أحلام.

بعد شرب الشاي، وضعت أمام كل واحدة، نسخة مطبوعة ومجلّدة من الرواية.

بسرعة خاطفة تلقفن نسخهن، لاحظت إمارات السرور والانشراح واضحة جداً على وجهي آمال وأماني وبدرجة أقل على وجه أحلام.

سألتني أماني :

– متى نقرأها الآن أم بعد الغداء ؟

– الآن .. الآن وليس غداً.

هكذا أجبتها وأنا أفتح الصفحة الأولى في نسختها :

– إقرأي هذه العتبة، ما رأيك بها ؟

" النساء مثل الروايات، لابدّ أن تجد نهاية لعقدها .. "

ضحكت ضحكتها المميزة :

– صحيح والله، لمن هذه المقولة لك أم لغيرك ؟

– للأديب الفرنسي ستندال.

ـ آه، حتى تعرف أدباء فرنسا، كم هم رائعون.

ردت عليها أحلام :

ـ ما علاقتكِ أنتِ بهم ؟ دراستك في فرنسا لا تعني تبنّيك لكل ما هو فرنسي.

ـ ألا تعرفين أن ستندال نذر حياته للدفاع عن المرأة، أليس هو القائل إن الفوز بامرأة مثل الانتصار بمعركة، كتب عن النساء كثيراً، مجرد اختيار إحدى مقولاته يعني الانحياز لصالح قضية المرأة وإنسانيتها وحقها في الحب والحياة.

قاطعتهما :

ـ أرجو أن لا يضيع الوقت بالمساجلات، لدينا ساعة فقط قبل الغداء، ابدأن القراءة، أحبّ أن أسمع الملاحظات قبل الغداء.

قالت آمال :

ـ ألا تخشى أن تأتي الملاحظات سلبية فيتحول السمك إلى سم ؟

ـ السم ينفع أحياناً كدواء.

رمقتني أحلام بنظرة وكأنها تريد أن تقول : يكفي لا تتكلم بعد.

نهضت وبيدي نسختي لأفاجئهن :

ـ سيداتي الجميلات، سأجلس على طاولة مجاورة أعيد قراءة الرواية، وحتى أمنحكن كامل الحرية في القراءة والنقاش.

تركتهن وحيدات يقرأن الرواية، لم أكن بحاجة إلى قراءتها، فعلت ذلك لأتحاشى أي موقف يثير حساسية إحداهن.

حرّكت الكرسي أكثر من مرة لأكون بموقع يتيح لي رصد ردود الفعل ورجع الصدى على وجوههن دون أن ينتبهنّ.

ساد الصمت بعد أن انغمسنّ بالقراءة، بعد ربع ساعة طلبت آمال من عامل الخدمة جلب أربعة فناجين قهوة.

ركزت نظري على وجوهن وبالذات عيونهنّ، فالعين مرآة الجسد، هي أول عضو يتأثر سلباً أو إيجابياً.

كما توقعت جاء أول رد فعل من آمال عبر دموعها المنسابة بطيئة، ما لبثت أن اشتدت لدرجة أنها توقفت أكثر من مرة عن القراءة، ثم عاودتها.

أما أماني فبدت الأكثر سعادة، ظلت تبتسم وتحبس ضحكاتها إلى أن نظرت إليّ نظرة توحي باستمتاعها بما تقرأ.

لم أرصد على وجه أحلام أي تعبير يمكن أن أفسر من خلاله تأثرها من عدمه.

مرّ الوقتُ سريعاً، طلبت آمال تمديده لنصف ساعة، أيدتها بذلك أماني، في حين ظلت أحلام صامتة وهي تواصل القراءة.

بعد عشرين دقيقة توقفن عن القراءة وبدأن النقاش.

جاءتني آمال طالبة مني الابتعاد عن طاولتهن لربع ساعة، لم أسألها عن السبب، نهضت ذاهباً إلى الموقع الذي يشوى فيه السمك، وقفت هناك بذريعة الاستمتاع بشي السمك.

طلبت من العامل شي سمكتينا وتابعت العملية معه إلى أن جاءتني آمال، قالت:

ـ تفضل انتهينا.

قبل أن نصل إلى حيث طاولتنا، سألتها بصوت خفيض :

ـ حمامة أم غراب ؟

ابتسمت وردت :

ـ حمامة.

ـ ما لونها ؟

ـ أبيض مع خيط رفيع من السواد.

جلست معهن لأرى ورقة بيد أماني وضعتها فوق نسختها.

بادرت أماني بالحديث بلهجة المنتصر:

ـ أترغب بسماع الانطباعات أولاً أم القرار النهائي ؟

ـ أفضل سماع قرار الحكم النهائي الآن، ولتكن الانطباعات بعد الغداء.

ـ القرار: نحن موافقات بشرط إضافة هذا التنويه إلى الرواية كملحق.

بدأت تقرأ التنويه.

نحن ثلاث نساء مثقفات من هذا العصر المتناقض المتلون الغامض المخادع، قررنا بمحض إرادتنا، أن نضع أسرار دفاترنا أمامكم، دفاتر لم تعد سرية، تحمل بين طياتها آلامنا، آمالنا، نجاحاتنا، خيباتنا، شهواتنا، نزواتنا، تمردنا على ذواتنا وعلى المجتمع.

إنها باختصار تحمل أرواحنا، إقرارنا، لعل في قراءتها عبرة لمن أراد أن يعتبر.

قبل أن تصلكم هذه الدفاتر خضعت لعملية مونتاج وتلفيق، إضافة وحذف، إعادة صياغة وسبك، على يد رجل خبير بفن الكتابة وألاعيبها، فعبث بها وأعاد إنتاجها كما يشتهي ويحب.

اعترضنا، لكن أصواتنا ضاعت في لجة رغباتنا المكبوتة وأرواحنا الأسيرة، بعد أن نجح هذا الشيطان المتخفي بهيئة رجل، في تفجيرها بالغواية، ملتقماً من حواء بذريعة إغوائها لجده الأول.

أقنعنا بدهائه وحيلته انه سيحل عقدنا كما يحل عقد رواياته، فالنساء لديه كالروايات يبحثن عن حلول لعقدهن.

انطلت علينا لعبته فصرنا أسيرات لسحره وأفاعيله بعد أن اعطبت عقولنا وأخرس منطقها وخدرت أجسادنا.

صحيح ان عقدنا قد حلت، لكن الحل كان حله هو، لا الحل الذي نريد، كتب نهاياتنا كما يروق له.

كم تمنينا أن تترك نهاياتنا مفتوحة " فالنهايات المفتوحة تنتصر للنص، وتحمل القارئ مهمة الفعل وتحريك الحدث، والمساهمة في انفراج النص وانفتاحه على كل التأويلات، ومن ثم انتزاعه من قارئ مستهلك للقوالب التقليدية بخواتيمها الحاسمة إلى قارئ عارف وعالم منتج ...".

لكن ما الفائدة، لا جدوى من الشكوى، فقد أعاد صياغة مشاعرنا وعواطفنا، بدل أن يعيد صياغة دفاترنا، فعل ذلك كما يريد وبتواطؤ منّا، ووضع نهاياتنا برغبته.

فلتحذر بنات حواء من نهايات يرسمها لهنّ الرجال.

أخيراً، للإنصاف نعترف أن الرجل الذي صيّرنا إلى رواية قرأناها نهاراً واكتفى هو بقراءتها ليلاً ؛ قد لعب معنا ولعبنا معه، لعبة لذيذة، كنّا نعرف أنه يلعب معنا إلا أننا استمرأنا اللعب معه، فهو لاعب ماهر، سجل أهدافه في مرمانا بحالات تسلل غير مرئية، خذع الحكم وراوغ دفاعاتنا، ليسقطها الواحد تلو الآخر، ثم انفرد بمرمانا، أستعرض كثيراً، قبل أن يسدد هدفه الذهبي لينهي اللعبة. تقبلنا الهزيمة بروح رياضية، وإلى مباراة أخرى نقصد رواية جديدة نأمل أن ننتصر فيها، نراكم بخير.

المؤلف في سطور

* استاذ جامعي وروائي من العراق – بغداد.

* دكتوراه في الإعلام والاتصال.

* عضو هيئة التدريس في جامعة بغداد – كلية اللغات بمرتبة أستاذ مساعد.

* رئيس تحرير صحيفة بريد عشتار الأسبوعية المستقلة.

* فاز بجائزة بغداد للصحافة عام 2014.

* أنجز الروايات التالية :

- على أمل أن نعيش – صدرت في بغداد باللغة العربية 2014.
- على أمل أن نعيش – صدرت في كندا باللغة الإنكليزية 2015.
- رغبات منفلتة 2016.
- لعنة كين – باللغة الإنكليزية – تحت الطبع – لندن 2016.

* صدرت له العديد من المؤلفات في الإعلام والصحافة واللغات.

* الإيميل : fawzi.hadi@yahoo.com

موبايل : 07702544607

إشارة

وظّف المؤلف معلومات وعبارات وردت في مقالات للكتاب:

د. قاسم حسين صالح، لطفية الدليمي،

محمد غازي الاخرس، علاء المفرجي

بعد إعادة صياغتها بما يخدم الرواية .

نحن ثلاث نســـاء مثـقفات من هذا العصــر الشـــائك، الملتبس، الغامض، المخادع ، قرّرنا بمحض إرادتنا، أن نضع أسرار دفاترنا أمامكم ، دفاتر لم تعد ســـرّية ، تحمل بين طياتها آلامنا، آمالنا ، نجاحاتنا، خيباتنا، شهواتنا، نزواتها، تمردنا على ذواتنا وعلى المجتمع.

إنها باختصـــار تحمل أرواحنا، إقراؤها، لعلّ في قراءتها، عبرة لمن أراد أن يعتبر.

قبل أن تصـــلكم هذه الدفاتر خضــعت لعملية مونتاج وتنقيح، إضافة وحذف، إعادة صــياغة وســبك، على يد رجل خبير بفن الكتابة وألاعيبها، فعبث بها وأعاد إنتاجها كما يشتهي ويحبّ.

اعترضنا ، لكن أصواتنا ضاعت في لجّة رغباتنا المكبوتة وأرواحنا الأسيرة، بعد أن نجح هذا الشـــيطان المتخفي بهيئة رجل، في تفجيرها بالغواية، منتقماً من حواء بذريعة إغوائها لجده الأول.

أقنعنا بدهائه وحيلته انه سيحل عقدنا كما يحلّ عقد رواياته، فالنســاء لديه كالروايات يبحثن عن حلول لعقدهن.

انطلت علينا لعبته فصــرنا أسيرات لسـحره وأفاعيله بعد أن أعطبت عقولنا وأخرس منطقها وخدّرت أجسادنا.

صحيح ان عقدنا قد حلّت، لكن الحل كان حله هو، لا الحل الذي نريد، كتب نهاياتنا كما يروق له.



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٢٠٨٣ لسنة ٢٠١٦ م